جِسْرٌ مُقَوسٌ

رواية

مبروك أبو العلا

الهيئـــــة العامـــــة لقصـــــور الثقافـــــة
إقلـــيم شـــرق الـــدلتا الثقـــافي

محافظـــــة الشـــــرقية

فرع الشرقية الثقافي
سلسلة خيول أدبية

وكما تواعدنا دائما أيها المحبون نلتقي على حب الكلمة وسمو الحرف ، ورفعة المعني ، فالأفق هو عالم الإبداع الأكثر انفتاحا وتطلعا لكل ما هو صدق وبهاء ، إنه الشاهد على حلم التطلع للضحي الكامن في أعماق أعيننا ونحن نتطلع لرؤية نصيبها أو غاية ننشدها ، وبكل ما نملك من رغبات حرة ، لا تحدوها المنافع والأهواء والمصالح الخاصة .. إنه الحلم الذي تنشده الفنون ، ولاسيما فنون الإبداع الأدبي .. ذلك الأفق الذي نطالع فيه (خيول أدبية) في طرحها الثاني ، وهي تركض نحو تأكيد قدرتها على اللحاق بركب السيطرة والانتماء والتفوق ، وفي موكب الحق والخير والجمال ، ذلك الثراء الفكري والثقافي والإبداعي الذي دعمه ، بل واستثمر فيه معالي الوزير المستشار يحي عبد المجيد محافظ الشرقية ، ليكتمل البهاء والاستمرار ، وفاءً بوعد النبلاء في احتضان أدباء وشعراء هذه المحافظة الثرية والخصبة في شتي المجالات والفنون ، إنه حرث الفنان / أحمد نوار ، الذي ولي وجهه شطر أصحاب الفكر بالقلم ، أو بالفرشاة سواء ليؤكد أنه الزمن الذي يتحتم علينا فيه أن نؤكد - بما في الفنون من لغة مؤثرة - على ضرورة النظرة بإنسانية إلي العالم ، لنتمكن من الانتماء .. بل والتماهي فيه .. مدعوما بورود الشاعر الأرقي مصطفي السعدني الذي يضفي على المشهد الإبداعي بهذا الإقليم الخصب جمالا مضافا ، باقترابه المقترن بالرعاية ، وحرصه الدائم على اكتمال البهاء .

والله الموفق

الفنان / محمد الشاعر
مدير عام ثقافة الشرقية

إهداء

إلى

صوت المطر القادم الذى

يُنعش الأرض

" إيمان – مِنَّة الله – محمود "

وثمة نورٌ قادم من أعمق

أعماق المدي

" أن تؤمن وأن تعمـــل فهذا

هو المثل الأعلى .

ألا تؤمن فذاك طريق آخـر

اسمه الضياع .

أن تؤمن وتعجز عن العمل

فهذا هو الجحيم "

" نجيب محفوظ "

... جسر مقوس .. لا يزال البعض يُطلق عليه جسر الرعب .

ورعب هذا الجسر لا يكتمل إلا فى القيلولة والمساء ، حيث تتبدى كائنات غريبة المنظر وتُسمع صفير الحشرات الصغيرة يقطعه نعيق بوم، وعواء يُدوى بين حين وحين فى أحشاء الجسر ، على مقربة منه تطالعك شجرة نبق عجوز مدت فروعها على الطريق الترابى ، وحين يخمد الصفير وتسكن الريح تُسمع تَسبيحات الشيخ الطريقى الرابض فى خلوته تحت النبقة .

فى تلك الليلة ، وقف بقامته النحيلة المقوسة وجبهته البيضاء ، ولحيته الكثة التى تشى بالمهابة.

راح يُقلب فى سحارة خشبية حتى استخرج منها حزمة من الأوراق ، وقبل أن يلفها ألقى نظرة على جُب المخطوطات وقال :

– " رحمتك يا رب ... لماذا دائماً ننسى .. عليَّ أن أُذكر شباب القرى والنجوع المجاورة كل ليلة !! "

ولما سمع الطريقى هذه الليلة فحيحاً مكتوماً يَرتفع إلى حدٍ مزعج قال :

– " تلك قُوى شريرة تجمعت من مخلفات العالم ، أتت لتخريب الحقيقة" .

فى مطلع النهار اختلجَتْ عينا الطريقى أمام صرخة شامية البدوية .. وغالبه الانفعال ؛ كانت صرخة مشحونة بتعاسات أزمنة ، وتداعيات لم تحضر من تلقاء ذاها تطر إليها باهتمام ودقق النظر ، وجدها تتكفئ أسفل الجسر بمكابدة إنسانية على جثة غارقة فى الدم والطين !!

فتح الطريقي عينيه ثم أغمضها وتأوه !! ثم صـــمت ، ثم أطــرق برأسه إلى جُب المخطوطات ، وواصل كلامه :

– " رُعب جديد ، وألّم مُقيم !! ، وصبر جميل .. لم أبكِ ولم أذرف دمعة . يا شرف الدين يا نجعاوى !! " .

تواترت الخلائق بانعطافة محسوسة ، ترى المشكلة قائمة وواضحة لذلك رفرفت قلوبهم المذبوحة لرؤية القتيل الجديد .. بقع الدم اللزجة دافئة فوق ثيابه ، مُتخثرة ومتناثرة فوق الحشائش .

دوت صيحة شامية فى الناس :

– رأيته يُحلق ويرتفع ؛ فرحت أتابعه بعينى ..نظرت إليه ونظر إلى .. ظهرت الدموع فى عينى الطريقى وهو يعانقه وضع رأســه علــى كتف الطريقي ، قال الطريقي من بين دموعه :

– ابق الليلة معي والفجر قريب. "

هكذا صاحت شامية حتى اشرأبت بعنقها ، وضحكت ضـــحكة عالية ، وجرت ناحية المقابر حيث قبر الحبيب يوسف الذى قُتــل فى هذا المكان " تصرخ .. يا بلد .. قتيل بلا ديّة !!

خلف تلة قريبة من المشهد أقعى نعمان فى جحيم الحـــزن لاهثـــاً مرتجفاً قابضاً على زمام بندقيته التى اشتراها حديثاً من يوم هـــروب ابنته سلوى وعبورها الجسر فى أمان !!

يحدق فى الناس يزم شفتيه ، ويمسح دموعه .. " مـــرت أيـــام ، وأسابيع ، وشهور ، ولم تعد سلوى " .

هكذا قال نعمان لنفسه ثم غرق فى الصمت ؛ يتسمع طرقعـــات الحصى تحت أرجل الخلائق .

فزع قليلاً حتى كادت شامية أن تحس بأنفاسه ؛ فارتفع صوقما ، وقالت :

– نظرتك يا نعمان .. نظرة الإنسان العنيف والعاجز عن ممارسة الفعل !! سلوى سلمت سلاماً وطالت مدها ، وسوف تعلن أن واحداً فى الدنيا لا يملأ عينها .. سلوى فى يد من يعتقلون الهواء ، وينشئون ساحات الترويض ، وشواهد المشانق !!

– ارحمى حزنى يا شامية .. ارحل الآن ولا أعود .. بـل أعـود وعلى ظهرى جثة سلوى .. لن أغفر لها هذا الذنب ..

..فوق الشاطئ بالقرب من الجثة سطعت فى عين فضـل محمـود شعلة نار عندما داست قدمه عُش أفاعٍ ، ونهض مثل نسـر مجـروح يجتر أعوامه العشرين حتى لامس ساقه العرجاء ، وهمس :

– " سوف تتحول جمراً ، وأجر خطاى على الدرب الوعر "

لجأ فضل محمود إلى الجثة بطريقة علنية لعله يواجه جحيمية الوقت الكاملة ، وبث حضوره داخل الجثة ، وتمسك بها بوصفها مصـدراً للتقويم والشروع فى مدى واسع قُدر له من عمق الزمن .. قال وهو يُساعد الخلائق فى نقل جثة شرف الدين النجعاوى بعد تصريح الدفن :

– " أدركت خطر تقوقعى داخل رؤيتى الضـيقة ؛ لـذلك أرى البديل فى إشباع عناصرى داخل معملى الصغير ، وتكـبيره بلغـات وابتكارات فريدة تستأنف الغوص .. والمشاكسة مادمتُ أنتمـى إلى هذه الحقبة التاريخية التى تهيمن فيها السفاهة والوصاية ، وبصفتى فرد

من أفراد الجسر المفرغ من مضمون الإنسانية والعدل ؛ فليس من باب العبث أن ألمس جيداً المرامى التى ما فتئ كل قتيل مواظباً عليها."

أثناء ذلك كان الشيخ الطريقى يطل على المشهد من خلوته ، ويتابع فضل محمود فى سرعة تصرفه وحدة صوته ، وإشارات يديه ، وملامح وجهه التى تكذب صحة ساقه العرجاء .. قال الطريقى وهو ينكب على جُب الكتب والمخطوطات ، يتلمسها مثل كنوز :

– فيك شفافية يا ولد ، وانتقاء ذهن ، وحمية حكيمة .

تذكر الطريقى حُلماً رآه فى ليلة سابقة : أن ولداً من النجوع يخرج من خلوته ، ويخوض عباب البحر .

مع الدموع انسابت تسبيحات من فم الطريقى الخالى من الأسنان، ووقف لينظر إلى ولدين يلازمان فضل محمود .. قال :

– إحساسى لا يخيب .. لن يكون وحده ..رحمتك يا الله.

لحظة نقل الجثة ؛ صادف فضل محمود يقين مُدهش :

لقد عثر على حقيبة جلدية بين الحشائش وأعواد الحلفاء ، زُحمت بأوراق مُتراصة خاصة بقتيل النجع شرف الدين .

التقطها ورحل بها إلى معمله الصغير ، فتحها .. فحص الورقة الأولى :

كان مضمونها يُصور بشاعة مرحلة أدَتْ إلى تشويه أهالى وشباب النجوع ، وتحريف المعانى وهميش العباقرة ، وتعتيم الرؤى الجوهرية للأخلاق .

وفى الورقة الثانية :

تمثل للمآسى العائلية ، ووصولاً للمآسى الشعبية .

وكان وجه شرف الدين ينطق من بين تعاريج الحروف بشئ من الصرامة ؛ ليواجه الحياة المتعفنة التى نشبت بسبب وجود قطيع من زواحف بلا وجه ولا جنس تهيم على أفراد ومجتمعات القرى والنجوع!!

أما الورقة الثالثة :

كانت تُمثل أقنعة متباينة ؛ تحكى طموحاً بشكل مُبالغ فيه – إلا أنه شرعى – مجرد هدف عميق وواضح أدى إلى قتل شرف الدين .

وثمة ورقة فى الجيب الخارجى للحقيبة :

– " أُصيغت هذه الأسئلة ؛ لتظفر بإجابات ضمن المعنى الذى يفترضه كل سؤال ، من أجل إعادة رؤية سليمة للواقع "

وأسفل الورقة قبل التوقيع جملة تقول :

– " الحال أن هذا يُفضى إلى حيرة ، وتمرد مشروعين وإلا فماذا يمكن أن نفعل !! "

" شرف الدين النجعاوى "

وفى ورقة صفراء مكتوبة بالحبر الأسود عبارة صارخة عن تسويغ الأوصاف المتراكبة والمعقدة لبطون ، ووجوه ممتلئة تفرض الوصاية والأحكام دون مُهادنة موضوعية!!

وثمة ورقة فى بطن الحقيبة :

تصف الحياة الكئيبة لسكان النجع خلال سنوات ما بعد الانفتاح!!

جسرٌ مُقوس !!

تتشكل فيه كل يوم جملة من الأفكار التى من صلبها تتولد الرغبة الشديدة فى كيفية عبوره ، ومواجهة المسترفين مهما كان المصير ، ومن ثمَّ فإن الأنا الراغبة فى العبور بابتكارها الذى يشف من خلاله وضوح الموقف ؛ فإن شرف الدين النجعاوى .

– القتيل الجديد !! – " كان على دراية تامة بالداخل عندما صرخ فى هذه الأوراق ، وقال :

– " سوف أتحرر من أى التباس بهذا الابتكار وأنجو من كل وصاية سافرة تُشرع أظفارها فوق هذا الجسر اللعين!! "

عقب دفن الجثة ، وقف الشيخ الطريقى كعادته ، حتى أتى الليل ؛ فراح ينظر للقمر والنجوم ، وعلت همهماته فى السكون الذى يلف الجبل ، والسحب والصخور ، ، والأشجار الباسقة على رءوس التلال يلمح القمر ثانية بعد أن غاب فترة خلف الأشجار . .

يتأمله ، يتفرس فيه بإعجاب ثم يعود إلى صمته بينما تفشى داخله الجسر وحكاية بنائه ، وقصة شامية البدوية التى جاءت أسرتها من غزة فى ليلة شديدة الظلام ، واتضحت أمامه الحال التى وصلت إليها ، وعلاقتها بالجسر والمقابر وكثرة هذياها ومناجاها ليوسف:

ويعلم حقيقة حكاوى وأقاويل القرى والنجوع وعن البنت شربات ست الحسن والجمال ، وعلاقتها بالجسر .

فى هذه الليلة ندتْ شفتا الطريقى برطوبة التسابيح الدافئة ، وحين مسح وجهه بكفية أحس بأنفاس تقترب منه فمسح بكفيه وجهه وصدره ورفعهما بالدعاء .

تلكأ فضل محمود حتى يأذن له الشيخ .

ولما استدار له الطريقى اندفع فضل فى عناق طويل معه كما لـــو عثر على سراج يهديه على الطريق الطويلة .

أخرج الشيخ مسبحته من جيبه ، وأشار له أن يجلس بجـــواره ، فجلس حيث أشارت يده دون تردد ، وقال :

– انتظرتك طويلاً ، ولكن أسعدنى أن أراك على غير موعـــد .. لماذا ترددت فى زيارتى ؟ !

– الواقع يا شيخ : أننى جئت مرة بعد مرة ، ولكن لم أعثر عليك.

–وماذا يُضيرك يا فضل لو انتظرت حتى أخرج من خلوتى؟

أطرق فضل برأسه مثل طفل مذنب ثم تماسك وغالب خجله ثم قال :

– على أية حال .. أنا بين يديك يا شيخنا

–حسنٌ يا ولدى .. لم يخب ظنى ؛ فماذا عساك أن تطلب؟

– جئت لأنصت إليك .

امتدت يدا الشيخ نحوه ، ومست كتفه مساً خفيفاً وقال :

– أولاً .. هل أنت بخير ؟

أجابه :

لا أدرى ماذا افعل ؟ !

وهل تلك إغفاءة أم غيبوبة ؟ !

لا أدرى ماذا حدث لى على وجه التحديد بعد حـــادث شـــرف الدين – فقط – سمعت أصواتاً مخيفة تفزع الليل والجبل والنجـــوم ؛ فأسندت رأسي إلى جدار المعمل حتى انفرج نهار عن رجل مهيـــب الطلعة يتوكأ على عصا ، وعلى رأسه عمامة – رأيته تماماً – كمـــا

أراك الآن ، ولما ولتْ اللحظات؛ انتابنى الغضب ؛ فرأيته فى يقظتى ، وصرت أرى شفتيه دون أن أسمع صوته .. خُيّل إلىّ أنه يقول :

– " هون عليك " .

ولكنى كنت أسأله : – ماذا تقول ؟ !

فيُحرك شفتيه دون صوت .. توسلت إليه :

–ماذا تقول ؟ !

حتى وجدتنى عندك فى هذا المكان .. احك لى يا شيخ عن شرف الدين.

مسح الطريقى كفيه بقطعة قماش مبتلة بالماء ، وركن الكتاب الذى انتهى من تجليده لتوه ، وحوقل وبسمل ثم شمل فضل محمود بنظرة وقال :

– فى صبح مبكر من العام الماضى ، تعرفت عليه من خلال حرفتى .. جاءنى ببعض الكتب القديمة لأصنع لها أغلفة .. عَهدته رائع النظرة ، مؤثر بنباهته ، وفى يوم كاد أن يقع فزعاً وإعياءً من إغلاق الجسر ؛ ومن ثم انهمر الهتاف من داخلى بدعاء صادق حتى اغرورقت عينه بالولاء ، ففتحت له جُب الكتب ، وأصر على المبايعة أبد الدهر.

شرف الدين يا ولدى .. لم يخرج عن دورة المرسوم لكى يضع بين يدى وقف الكارثة ؛ فتكلمنا ، وسهرنا وكتبنا ، واغترف من جُب الكتب القديمة حتى لازمته حمى الفداء عذباً وأصيلاً .

وفى يومٍ عاد زائغاً يبحث فى المنحنيات ، والتواءات الطُرق . فى هذا المساء الغائم تدفقت أمامى الرؤى .. تأكدت أنه مجروح يشوبه

شجن – فى تلك اللحظة – كان يستعرض النظر فى ظلال السُحب ، وينفر من أصوات الجنادب ، وظلام الجسر المغلق .. وبين كل نظـــرة ونظرة كانت روح الحُمى تنساب فى تصميم ، وكانت سنابل القمح طالبة الجنى فى موعدها .

شرح لى بوسامته أهمية ابتكاره ، بينما أتصفح عينيــــه البـــارقتين وأفكاره التى تجلت فصار لها فى أذنى وقلبى سُلماً من النغم المتميز .

فى هذه الليلة وبوجه أخص أقنع نفسه بأن أى قوة لا تملك الحــق فى تراجعه ، أو تغيير رأيه مهما كانت هذه القوة حتى البنت الوحيدة التى أحبها .

أشار لى بأن أدعو له بالتوفيق ، ومحالفة الحظ . ثم انحنى فى رشاقة ، وتناول هذا الدفتر ، وراح يُدون فيه العبارة التالية :

" حاولت جاهداً أن أُصغى إلى إيقـــاعى الخـــاص ، وأن أصـــوغ ابتكارى فى الوقت بطريقتى الخاصة ، وآمنت بالحكمة القائلة :

" إن الطريق إلى الخلاص شاق .

فبرغم الموقف إلا أن الشئ يبدوا لى طبيعياً تماماً .

– على الرغم – من دهشة آخرين من الطريق الـــذى أســـلكه من أجل الخلاص "

هذا ما دونه شرف الدين النجعاوى ، وما أن فرغ من التدوين يا فضل يا ولدى حتى استدار خارجاً من الزاوية بخطى متعجلة تُـــوحى بأنه على موعد بالغ الخطورة !!

* * *

.. فى غبش الفجر ، ودع فضل محمود الشيخ الطريقى ، وسار فوق التراب المبتل بندى فجر ، وراح جسمه يهتز انفعالاً ، ثم وقف بالقرب من الجسر يمطر نفسه بأسئلة :

- " من أنت يا فضل ؟ ! .. هل استبد بك الخوف ؟ !

لم أكن جباناً .. الخوف لا سلطان له علىّ .. أملك أعصابى إذا شعرتُ أنهم يُصوبون علىّ .. نيران بنادقهم " أستطيع قهرهم لاسيما فى مثل هذه التجربة الجديدة التى أقوم بها .. ابتكارى لابد أن يعبر الحدود .. محطته النهائية عند كل الناس .. لدىَّ الشجاعة الكافية .. ساقى العرجاء لا تعوقنى .. الفتُ صلصلة العجلات التى لا ترحم ، وتوصلت إلى معنى التصدعات التى تُضاف كل يوم بنوبات قصف واغتيال عباقرة النجوع !!

لن تتحطم آمالى فوق سُرة هذا الجسر المنغلق .. "

هكذا تحدث فضل محمود مع نفسه ، وتمسك بهذه الذاكرة باعزاز.

*　　*

* واصل السير ، وبعد مسافة قصيرة شعُر بغُصة تُسيطر على حلقه ؛ فتريث قليلاً عندما فُوجئ بعواءات إنذار مجهولة المصدر !!

تبدو مُعادية تماماً !!

خبأ أوراقه فى كُم سُترته الواسعة ، وكان عليه مواصلة النضال العقلى إلى آخر رمق ، حيث قال لنفسه :

- " لا بأس .. مما لا مراء فيه : أننا نجد بعض المواقف غبية بشكل

مُطلق ، وأحياناً درامية ، وهناك أيضاً الجدل المحبط الذى هو أسوأ – على أية حال أَقرأتُ المَشهد ، وتكشفت الأمور ، وزادت معالمها وضوحاً ؛ فَقُدر لى أن أعارض .. فُصلت هذه الأبعاد فى حادث مقتل شرف الدين ؛ لكنه حظى بمعايشة الموقف ، والعناد ، وخلَّف مخطوطه فى دار أمه تحوى فى جوفها خطة ابتكاره .

لابد أنه أحس بقوة عظيمة تدفعه إلى أن يقفز فى الهواء ، وهو ينال شرف القتل .. لم يكن مجازفاً ، وأن كل من لقوا مصرعهم تحت الجسر يؤكدون ما صحتْ عليه عزيمتهم – أشعر بها الآن – الرغبة فى العبور .. لدىَّ ما يكفى لمواصلة المشاكسة بصرف النظر عن ساقى العرجاء .

* * *

.. كان الخط الأسفلتى يمتد أمام نعمان إلى مدى البصر ؛ فخُيل إليه أن البنت غابت فى سابع أرض ! !

أول الأمر : انكفأ يُوارى وجهه فى شجرة النبق العجوز ؛ يبكى بكل ما يعتمل فى أعماقه من ألوان التأثر ، والانفعالات حتى شعر بآلام حادة فى ظهره ! ! آلام لا تُطاق تكاد تُخرجه عن صوابه ؛ فاحتضن البندقية التى اشتراها بعد هروب سلوى .. رُمى بصرُه على امتداد الإسفلت .. يحاول بذل أقصى جهده ؛ لتخفيف حدة الآلام فى ظهره ! !

* *

* قرر نعمان عبور الجسر للبحث عن البنت .. قال :

– " الفترة التى أعيشها الآن أصبحت حساسة ومؤلمة وخطيرة ..
والليلة سوف أضع النقط فوق الحروف ، وأعبر الجسر "

استعد وتنفس ، ودلك يده ، ونشط ، واقترب من مدخل الجسر لكنه اضطرب وانزعج إلا أنه عاد للمحاولة والإصرار وفجأة بــرز حيوان مفترس مفعم بالرعب من بين أعواد الحلفاء ثم اندفع نحو نعمان وطارده حتى أوقعه فى المصرف ليتقلب فى طبقات الوحل ، فصــرخ وتوسل وانزوى مستكيناً فى فجوة فى الشاطئ !!

* * *

* فى البكور تجول فضل محمود فى شوارع النجع ، ينظر باهتمــام نظرات دقيقة حنون ، فرمشتْ عيناه أمام ضوء ينتشر من نافــذة .. ضوء قوى يكاد يُقوض الشبكة الحديدية الصــلدة المنتصــبة عنــد مدخل الجسر ! !

همس لنفسه :

" ثمة رائحة ما لعلى لا أفتقدها "

تسلل النظر إلى بيوت النجــع مــرة ، ومــرة وقــف يصــافح رفيقيه : قاسم عبد المغيث ، وصابر حمدى .

شمل فضل محمود إحساس بالفرح ثم قال :

– أخيراً ارتحت

وسكت لحظة ثم واصل :

– سوف يجمعنا مجلس واحد ، وهدف واحد .

ابتسم قاسم عبد المغيث ثم التفت إليه قائلاً :

– لن أتخلى عن واجبى

اقترب منهما صابر حمدى وقال بحزن :

– هذه الأحداث الخطيرة لا تهضمها النجوع .. يجب أن تكـــون عيوننا مفتوحة دائماً .. ولكن ماذا يمكن أن نفعل ؟ !

انتظر فضل محمود إلى أن تكلم صابر حمدى بلهجته المتمهلة

الواثقة بينما أغمض قاسم عبد المغيث عينيه كأن السؤال أرهقه ثم تراجع وفتح عينيه وهمس بإصرار :

– ماذا يمكن أن نفعل ؟ !

تجاوبت أركان فضل محمود لملامح صابر حمدى الفائقة ، وقـــدرة قاسم عبد المغيث على التسلل إلى أعماق الذات فاستدار إليهما باسماً معتزاً برفقتهما .

أعقب ذلك دقائق صـــمت ثم تجلـــى صـــوت فضـــل محمـــود المؤثر جداً :

– نتوجه فوراً إلى معلمنا الصغير .

* * *

* – " إنْ لم تُكتب للبنت العودة ؛ أحفر لنفسى مخبأ فى مكـــان ما ؛ لينال منى الموت ما يشاء ! ! .. "

هكذا قال نعمان لنفسه وهو يحاول التخلص من طين المصرف ثم واصل الحديث :

– " كانت تعيش معى بشكل طبيعى ، وفجأة لاحظتُ أنها تنوى للقيام بشئ خفى !! .. سألتها يوماً عما بها .. قالت :

– لا شئ !! سمعتها يوماً تقول لزميلتها نادرة ، وكانت الغرفـــة

مغلقة – " سوف أقضى الصيف القادم مع شلة تتمتع بسطوقا "
قالت لها نادرة :

– " هل تعى الخطر يا سلوى .. احتمال موتك مؤكد ، وأنت تعبرين الجسر !! "

قالت لها سلوى وهى تضحك : " فهمت معنى الدوائر والحلزونيات "

لم أكن أفهم من كلامها الكثير ؛ فغامت عيناى ، وشعرت بطبول كثيرة تدق فى رأسى إلى أن حانت منى التفاتة مفزعة يوماً إلى باب غرفتها المفتوح .. صرخت بالسؤال : – أين البنت ؟ ! أين أوراقها؟! فى الحال تذكرت زميلتها نادرة ؛ فمشيت إليها وأنا أسعل.

جلست عند نادرة حيثما كانت تجلس سلوى ، وانتظرتنى فى صمت لترى ما سأفعله : قلت لها : –أين سلوى ؟ !

هزتْ رأسها ببطء دون أن تجيب ، فتوسلت إليها :

أين سلوى ؟ ! .. أجابت بانكسار :

– " فى الليلة الأخيرة .. حبذتْ سلوى الهمس والمكر ، وعندما تخلو إلى نفسها ترتفع نوبتها بروح مراهقة ، وتغمغم بكلمات غريقة وسريعة ، ثم تبتسم بطرافة ، وتسألنى :

ماذا إذا كنت أعرف المقصود من غمغماقا أم لا ؟ !

قلت لها : –لا أعلم شيئاً يا سلوى .. ماذا تنوين ؟ !

قالت : – انبسط أمام عينى طريق النجاح يا نادرة .. الطريق الذى ينتهى بالمجد والشهرة ، ما علىَ إلا أن أوافق .. فأعبر الحدود فى

عز الضحى .

قلت لها : – تعبرين الحدود من الطريق الخلفى .. هذا يتوقف على شئ واحد .. أتعرفين ؟ ! .. شئ واحد يا سلوى !!

قالت : –انفتح الباب بما فيه الكفاية ؛ لأدخل ؛ فكيف أغلقه ؟ !

هكذا قالت لى يا عماه ، ثم انطلقت من بين ذراعى مثل الذبيحة نحو الجسر ! !

* * *

* أمام عينى فضل محمود : لاحتْ البلد غارقة فى طبقات من وحل كثيف !!

تزاحمت الأفكار فى رأسه ؛ وبدا قاسم عبد المغيث ممتعضاً وحانقاً ، وتبادل صابر حمدى النظرات مع رفيقه .. نظرات تغنى عن قول الكثير .

وضع فضل محمود شيئاً ثقيلاً أمام رفيقه على المائدة ، ثم رصَّ أنابيب الاختبار ، واستغرق فى التأمل يتابع الزجاجات الملآنة بالمساحيق .

* *

* ولما هبط الضباب كثيفاً حتى كاد أن يُخفى بيت فضل محمود صرخ الأولاد القادمين من أعماق الأزقة ، وتجمع أهل القرية يلملمون أولادهم ، وثمة تعليقات شتى لم تخل من الفزع والخوف ، وأنباء وتكهنات عجيبة عن مقتل شرف الدين ، ولكن لوُحظت شامية البدوية فى قلب الحشد وقد غلبت عليها روح التشجيع مرة ومرة تشير بيدها إشارة : لا .. لا ..

فى هذا الموقف بدا الشيخ الطريقى فى كتفه مخلاة الكتب القديمة يمر ويدلف بين الناس غير متجاهل ضراوة الحدث ، وأشار للصبيان أن يلزموا الموقف كما هم حتى ينقشع الضباب .

* فتح فضل محمود نافذة المعمل خافق القلب ؛ برز له من بين الحشد الشيخ الطريقى الذى تفرس فى وجهه بقوة ، وبدت له شامية البدوية التى اقتربت من النافذة ، وقد تشعث شعرها ، وشحبت بشرقما البيضاء ، وضعضعت عينيها نظرة ذابلة ، وحيدة بدون يوسف ، وقفت فى هدوء ووضوح بين الحشد كأنما يُلتقط لها صورة .

تبادل فضل محمود معها نظرات صامتة حزينة ؛ وقد أضفى منظرها الحزين على الطريقى تجهماً وكآبة ؛ فدنا منها بوُد كأنما يعاود السؤال عن بلدها ، وعن السبب الذى أدى إلى تهجيرها وتشريدها مع أب عجوز :

كان الطريقى يعرف القصة كاملة .. فهمس لنفسه :

– " تُشجينى وحدتك يا شامية .. لكن موقفك الملئ بالثقة من أن يوسف الحبيب عائد ، يذكرنى بالجهاد المستمر .. إنه الشئ الوحيد الذى لا نظير له . "

ثم بدا الطريقى وهو يستدير إليها أنه يُحييها ويدعوها لتستريح لكنها لبثت واقفة مستندة على جدار قديم . وقد تـألق وجهها الشاحب بشاشة عندما رأت الطريقى يعطى فضل محمود ظرفاً مُعبأ بأوراق من النافذة وتبادلا نظرات مودة وهما يتمليان الظرف بدقة وعناية .

ثم مضى فضل إلى الداخل وقد ترامت الأوراق أمامه فى المعمل

إلى غير نهاية .

*　　*

* تريث فضل لحظات ثم قال لرفيقيه :

– عما قريب سيكون لدينا الحصن .

ارتسم الحماس فى عينى قاسم عبد المغيث وقال :

– نفكر على مهل ، وإذا ساقنا الحظ إلى طريق مسدودة ، فعلينا أن نجد أخرى .

أكد صابر حمدى بإرادة قائلاً :

– موقفنا الراهن ينبئ بمزيد من النجاح .. عمل مستمر وحياة شريفة .

غمرت فضل روح خفيفة ثم قال وهو يفتح أوراق الطريقى :

– عمل دائم .. يمكننا أن نقرأ كل ما يجب أن نقرأه .

*　　*

* فى الورقة قبل الأخيرة ، فوجئ فضل بجثة شرف الدين تملأ الصفحة أمامه ، ممدة فى طين المصرف !!

كتم غيظه ، وهو يرى أنفه المقروض بفعل حيوان قارض ، ثم نملى عينيه المستغرقتين فى المشاكسة ، ثم إلى فمه المفتوح الذى يتضمن حيثيات وصية غالية .

بدا على فضل أنه يهم بالإصغاء ثم همس :

– " ماذا تعنى صرختك يا شرف الدين ؟ !

تفرسه قاسم عبد المغيث ثم فاتحه مازحاً :

– ثمة همس عن ماذا ؟ ثم استطرد صابر حمدى مبتسماً :

– كان يحلم بموت حارس الجسر .

مسح فضل عينيه ثم اعتمد على رفيقيه فى الوقوف ثم قال :

– رجعت خطوة للوراء ؛ غشيتنى لحظة غيبوبة عندما عـاودتنى جثة شرف الدين .. أثر ذلك فى نفسى تأثيراً حاداً محزناً ، لا سـيما عندما سمعت صوته وهو يقص تاريخه الطويل ، وجهاده ، والتيـارات التى أعاقته ؛؛ ثم رأيته يجلس عند الباب يراقبنا من بعيد بعينين جميلتين.

أثناء حديث فضل كانت عيونهم تتلاقى ثم تنفصل فى تفكـير وأن مشاعر متجانسة ترافقهم ، وذكريات مشتركة تخالطهم .

سأل صابر حمدى فى اهتمام :

– هل أمامنا خطة ؟

أجابه فضل محمود قائلاً :

– لا يمنعنا شئ من البدء فوراً .. نبذل كل ما فى وسعنا للتغلـب على العقبات الأخرى .. نعبر عندما نستطيع العبور .

قاطعه قاسم عبد المغيث بحرارة :

متى يكون ذلك ؟ !

قال صابر حمدى بنبرة لا تخلو من قلق :

– أجل .. متى يكون ذلك ؟ ! .. هل عندما نصبح فى مـأمن أم عندما تكون الطريق خالية ؟ !

أجابه فضل محمود بحدة :

– نعبر عندما تكون كل الابتكارات معدة ، ولن يتيسر ذلك قبل مُضى وقت .. المهم .. أن نؤمن وأن نعمل .

هكذا تم الحوار بين الرفاق الثلاثة ، ثم جاءت التفاتة من فضـل

محمود إلى ورقة تشير إلى كثرة جمعيات العلماء الشباب النشطة خلف الجسر ؛ فأحس براحة تسرى فى نفسه المضطربة ، وأسعده أن يـــرى رفيقيه يجهدان عقليهما فى خطوات التجربة .

* * *

* عكست عينا شامية المحلقتان فى الأفق نزوعاً للتأمل والـــتفكير العميق . لبثتْ فترة طويلة صامتة بالقرب من خلوة الطريقى ثم تمتمت تحادث نفسها ، وقد انبثق من عينيها شعاع غضب :

– عبور سلوى بهذه السهولة تجعلنى أشك فى عقلى .. قلت ذلك يوماً للطريقى عندما كان يهمس : هل نسيت سلوى ما كنت أذكره لها مراراً ؟ ! .. كنت على يقين أن حادثـــاً مـــا لســـلوى ســـوف يقع ، ولكنى لم أكن أتوقعه بمثل هذه السرعة !!

هكذا قال الطريقى بالأمس القريب ، وكان يضغط على ألفاظـــه فى حنق ، وهو يراقب معى خطوات نعمان المتعثرة يخفق مرة ، ومرة يتجلد قائلاً :

– " لا تكن بكاءً يا نعمان مثل الصغار !! "

– لحظتئذ – صرخت :

– مستحيل لا يمكن ذلك !!

صاح الطريقى بحنق :

لكنه حدث !!

واسترسل قائلاً فى أسى :

لم يكن عقلى مواكباً للموقف بشكل كاف إلا أنـــنى تبينـــت فى اللحظة الأخيرة هول الفجيعة ؛ حيث كانت تتحاور مع وجـــــــه

غريب ، ولما واجهتها قالت باستهزاء :

– ارجع إلى خلوتك يا طريقى ، وتجليد الكتب !!

وعندما اصطدمتْ عيناى بعينى الوجه الغريب أوسعنى سخرية هو الآخر حيث قبض على زراعها المستسلمة ، وأغلق عليهـا الزجـاج الكهربائى !!

هكذا قال الطريقى بالأمس ، ثم امتدتْ كفـه تمسـح دمـوع نعمان وهمهم :

– " ليس مبدءاً مقبولاً أن يكون المرء ديوثاً "

فى تلك الليلة لذت بالصمت طويلاً لإنهاء هذا الموقـف المعـذب واتبعت عيناى الأفق كمن تحلم .. أرنو إلى مشية يوسف المألوفة حتى امتدَّ رواق الحلم حيث جاءنى صوت يوسف مُتهافتاً ؛ فانتفضت من مجلس الطريقى فالتفت نحوى بحركة سريعة ونادى علىَّ : – إلى أين يا شامية ؟ !

لم أستطع الرد ، وأوسعت خطاى معلنة البحث عن الوسائل التى يجب اتباعها ، ولم تضق الأرض أمام عينى حيث لمحت شخصاً مُسرعاً فى الاتجاه الذى أسير فيه ، ينظر فيما حوله كأنما يبحث عن غوث .

ولما اقتربت منه ، وجدته " فضل محمود " لاحظته جاداً فى مشيته لا تعوقه ساقه العرجاء ، عنيداً فى نظراته ، سمعته يهمس لنفسه :

– " لن تفترسنى الهواجس أبداً .. الرحلة مأمونـة مـنْ جميـع النواحى ، ولكنها ليست أمراً هيناً . "

قال ذلك بإصرار ؛ فشكرته بإيماءة .. قال بحنان :

– متى أرى ابتسامة الفرح تملأ وجهك يا شامية .

وبقتْ عينه معلقة على وجهى الشاحب ودموعى الجافة .

* * *

* امتدَّ أُفق الليل بروحه الأبدية الـتى تجـذب إليهـا الثـائرين والمغـامرين ؛ فانسـاب خـاطر إلى رأس فضـل محمـود داخـل المعمل ، امتلأ بفكرة حتى الجنون ؛ فغرق فى تسويد ابتكار جديد ولم يمض قليل من الوقت حتى فرغ من التخطيط .

توثب بنظرة تمنى ، وهو يقول لرفيقه :

– نتمنى لو حدثت المعجزة ، ونرى هذه الابتكارات الجديدة تعبر الجسر .. سعادتنا تكون كاملة .

* *

* فى عمق هذا الفضاء الوسيع اجتاح الرفيقان قاسم عبد المغيـث وصابر حمدى شعور بالفخر ، وإذا بهما يُعانقان فضل محمود ، وقـال الثلاثة :

– تعد هذه الليلة من أعظم الليالى التى مرت فى حياتنا .. لم يعـد ثمة ما يدعونا للتكاسل .

اندفعوا ناحية الباب ، ومن ثم راحوا يطوون شوارع القرية وقـد تجلت نظراتهم بارتياح .. ثم قادتهم الرغبة برؤية الجسر ليلاً ، وخلوة الطريق .

* على مسافة من الجسر رمق فضل محمود رفيقيه بتحذيـــر حيث

شخصاً ما يحوم أمام مدخل الجسر المغلق .. يتراجـع ثم يمضـى متعثراً فى ارتباكه ، يهيم على وجهه تحت سماء ملبدة بالغيوم تلطمـه

دفقاتٌ مُتواصلة من لسعات البرد .

ومضى على ذلك فترة من الوقت فهمس قاسم عبد المغيث :

– ترى من يكون هذا المرتبك الذى يحاول عبور الجسر ؟ !

أضاف صابر حمدى وهو يتابع الرجل بنظرة خاطفة متوترة :

– أجل ترى من يكون ؟ !

أجابهما فضل محمود وهو ينظر نحوه فى حذر ، وتوقع ثم ابتسم مستعطفاً :

– إنه متعب .. يحاول فك همومه المستعصية .. إنه نعمان !!

ألا تسمعانه وهو يغمغم : " البنت ملأت نفسى بالعلل !! "

* *

بعد قليل لاحظ الرفيقان نظرة حادة فى عينى فضل .. تفرسا وجهه ثم سألاه فى مرارة :

– ماذا جرى ؟ !

قال فضل وهو يتلفت كثيراً نحو مدخل الجسر وحوله ، ووضح فى نظراته القلق والتوتر :

– يجب أن نُدرك حقيقة الموقف بنظرة واحدة .. انظرا هناك على راس الجسر من ناحية الإسفلت ثمة سيارة أُطفئت أنوارها الأمامية تحمل فى صندوقها منصة تشبه منصة إطلاق الصواريخ ، وثمة رجال يبدون منها بشكل مفزع كما لو خرجوا من بين أحراش لا نهاية لها !!

تسلل إليهم صوت مخيف :

– " سأدع لكم فرصة حياة مرة أخرى "

همس فضل محمود بنبرة لا تخلو من استياء :

– وتلك عجيبة حمقاء .. مخلوق مجنح أتى ليلتهمنا !!

فى هذه اللحظة حدثت رجة عنيفة لقاسم عبد المغيث فتحسس ورق اختراعة فى سترته الواسعة ، وقال بهمس مخيف :

– إنه ينتظر إلى أن نصبح محبطين !!

بينما شمل صابر حمدى التوتر والذعر عندما رأى مُسدساً ضخماً يتدلى من حزام هذا المخلوق المجنح !

وارتفع باطن فضل بموجة من النفور والتمرد ، وقال فى ثقة :

– أبداً لم يدركنا التشتت والملل .

تأوه صابر حمدى وقال :

– إنى قلق وخائف

قال ذلك عندما تناهى إلى سمعه صوت الرجل الشائه :

– " لم نُشيد لكم أبداً أفخاخاً بلهاء " .

حملق فضل محمود فى وجه رفيقيه ذاهلاً غير مُصدق وجهر وهو يصطحب رفيقيه إلى خلوة الشيخ الطريقى :

– كن قوياً يا رفيقى .. مملكة الله الواسعة لسنا فيها دُمى مُتحركة .. لسنا فيها عديمى الجدوى ..

* *

* كان جو هذه الليلة عاصفاً بارداً ، فتكور الرفاق الثلاثة فى صدر الطريقى ، وغمرهم فيض من الارتياح والأمل حين قال :

– " التمرد ثقافة يا ابنائى .. ليس فقط ناتج تولد تلقائى لجيل ؛ لأن كل جيل يحمل المشعل بقدر ما يستطيع ثم يُناوله إلى الجيل التالى .

نظر فضل محمود إلى الطريقى بثقة وقال :

– كل خطوة ترسم بدقة يا سيدى .

وأضاف قاسم عبد المغيث : –لابد النتائج مضمونة .

قال صابر حمدى بتأمل وأسى :

– لقد سقطت أشياء ، وانقلبت حقائق ، وفكرة العبور لازالت محفوفة بالمخاطر !!

ضحك الطريقى ، وهو ينظر فى عينيه باهتمام ثم قال :

– إنكم لم تقدموا الوسيلة ، لا بأس من أن يحمل الواحد منكم مخطوطه تحت إبطه لمدة طويلة ، ولا بأس من أن يُخبر خلال هذه المدة بنفس الهراء الفارغ الذى يقولونه : " مازلت شاباً .. يمكنك أن تُغير منهجك "

قال فضل محمود باستجابة مُتلهفة :

– لابد أن تمضى القاطرة يا سيدى ، وتصبح الطريقة مأمونة وخالية من الخيانة والاغتيالات المتكررة !!

أثناء ذلك امتلأ رواق السماء بلحظة هدوء مجيدة ، ثم تمادت دفقة هواء لينة جابت وجوه الرفاق ، وثمة خيط دافئ تدلى من الأفق فكادت أن تنقشع الظُلمات .. تنفس الطريقى سعيداً بلذة المحادثة وقال :

– على أية حال – التمرد يجب أن يظل ثابتاً حتى لا تفقدوا القدرة على رؤية الأشياء .

* * *

* أسفرت هذه الليلة عن وجه مغسول بماء القمر ، وثمة خضرة

يانعة ، وهواء نقى .. ونسمات ندية جعلتنى أنعم بالصفاء ؛ فابتسمتُ بل كان يجب أن أهلل ، وأنا فى عناق طويل مع أمى التى فى دار الحق.

أحنيت رأسى فى تسليم ، وتركت يدى بين يديها تضغط عليها بحنو .. أى سعادة يا أم !!

هكذا قلت .

قالت وهى تطالعنى بوجه بدد الظلمات عن رأسى :

– حسٌ يا فضل .. لا تخف ولا تفزع . امض إلى حال سبيلك ، قلت :

– أجل يا أم .. وضح الأمر ، واشتدَّ خفقان قلبى ، ولكنى نعمتُ بشعور المهموم منذ الصغر ، وأقبل علىَّ نفرٌ يشاركوننى هذا التصور حتى الأطفال المقيمين فى النجع ليس لهم من وسائل للتسلية واللهو سوى صناعة الدُّمى من طين المصرف تُمثل طواغيت يضعونها فوق مقاعد صنعوها من البوص والتيل ، ثم يحكمون رصفها فى صف طويل على الشاطئ ثم يتخذون من أنفسهم بُدلاء بعد عزل هذه الدُّمى وهدمها .

ومنهم فريق آخر يُمثل الجمهور يُصفق بحدة بعد إجلاء الدُّمى من المقاعد . وهكذا يلهون .

وهنا يا أم .. فى شارعنا الصغير الذى ينتهى طرفه بإحدى الطُّرق المؤدية إلى الجسر .. يقوم منزلنا الصغير .. لازال يختنق بما يحيط به من منازل متراصة .

ومع ذلك اختارته جماعتى لعقد ندوات تنظيمنا المعلن أنشأنا فيه معملنا الصغير حتى أصبح مُتنفساً لنا خلال سنوات القمع .. مارسنا

فيه إلى جانب تجاربنا المعملية كل الأنواع الثقافية وبدا فينا من روابط المحبة والمثابرة ما يؤهلنا إلى عبور الجسر .

وجهك يا أم مَنحنى حرية التصرف فى تحديد مستقبلى كما أشاء.

* *

* .. فى الصباح الباكر كان وجه أمى يثير الاطمئنان فى نفسى ، وظل ملتصقاً بذاتى ، ومضيت أنظر إليه كما لو تسرب الحلم إلى عالم الحقيقة .. حرصت على الخروج فى هذا الصباح .. كانت الطريق خالية تماماً .. أوغلت فى الطريق الخالية حتى أوشكت من الأحراش المتوغلة .

تباطأت فى السير ثم انحرفت قليلاً على حين جلستُ أمام حجر كبير سطحه أملس تبدو فيه خطوط متعرجة ، وزوايا ومنحنيات احتوانى هذا الشكل ؛ فاستغرقت فى فك رموزه بإصرار .

ربما أتوصل إلى شئ مفيد ، ولتوى فتحت لفافة أوراق ، وبسطت على الحجر خريطة المصرف الذى يفصل بين الإسفلت والطريق الترابية .

مكثت طويلاً اقرأ الخريطة التى كنت أود فحصها منذ بضعة ليال .

* * *

* .. فى هذه الليلة عقب ليلة المحاورة مع أمى انتابنى التأمل العميق ؛ فسكتُ عن الكلام فجأة مع رفيقى داخل المعمل وتوزعت رأسى فى أكثر من موضع !! على حين .

نظر إلىّ رفيقى قاسم عبد المغيث بانتباه ، ثم تحول الانتباه فى عينىَ

صابر حمدى إلى بحذر ثم سألانى بوقت واحد :

– ماذا يعنى صمتك يا فضل ؟ ! ليكن خيراً .

– كل خير ..

تبادلا معى نظرة لا زالت حائرة ؛ فقلت :

– يجب أن نحظى بقدر من التوجيه والكشف هذه الليلة مع الطريقى:

قال قاسم :

– أجل .. إن هذه الليلة قلق وخائف .

وقال صابر :

– ينبغى أن نخرج الآن حتى لا نشعر بأننا منبوذين فى وحدة قاتلة.

* *

* لملمنا بعض الأوراق والخريطة ، وتوجهنا إلى الطريقى .

قال قاسم : –يُحسن التحدث معه هذه الآونة .

وارتفعت موجة الحماس فى وجه صابر حمدى وقال :

– سيمدنا بالمخطوطات والذكريات .

* قطعنا تتابع الجسر عن كثب ، ومن ثم رأينا الحفرة المائية المنحوته وآثار من مَروا من هنا ، وشاهدنا فوق الإسفلت جمرات نارية مفزعة ، وأشكال معتمة مخيفة ، وأياد وحشية ترص أحجاراً صلدة على مدخل الجسر ؛ لذلك اندفعنا بلا صوت قدر المستطاع خلال عيدان الحلفاء خشية اكتشافهم لنا الآن :

وفوق ربوة عالية رأينا شامية البدوية منسحقة ، شحب لونها الخمرى ، وكان الهواء يزأر فى هبات متقطعة على حين وقفنا متوثبين

نسمعها وهى تترنم بلكنة حزينة :

– يوسف .. يا يوسف .

* *

* وبعد عدوٍ وكر قطعنا المسافة إلى الشيخ الطريقى وسرعان ما قال :

– انتظرت مقدمكم طويلاً .

اعتذرنا بشئ من الخجل ؛ فأذنَ لنا ، وقَرَّبنا من مجلسه ولما قرأنا وجهه العميق ، وشفتيه الهامستين ؛ ازدحمت أذهاننا بأسئلة عديدة ثم تحولت عيوننا إلى شامية فوق الربوة .. تطلعنا إليها فى فضول ثم همست :

– ثمة أثر لجمال قديم تحت عاصفة الحزن التى يسطرت على وجهها العربى المستدير !!

وهمس قاسم بنبرة لا تخلو من عاطفة قوية :

– كانت رائعة حقاً !!

وتلبد صوت صابر حمدى بغيم حزين :

– يا للقدر المضنى !!

هكذا همسنا فى حضرة سيدى الشيخ بهمس شفيف ؛ فتمتم بصوت مألوف محبوب :

– صَدَقت عواطفكم .

هكذا قال الشيخ ثم راح يرنو فى إعزاز وعطف إلى شامية البدوية وهى تنزل من فوق الربوة بهذيانها الجميل .

قرَّب وجهه من وجوهنا ثم قال :

– إنها ليست البنت العطوفة فحسب ، وإنما البنت المخلصة التى لم تخش الغياب والتحول من عالم إلى عالم فى سبيل تخليد يوسف الحبيب .. غير أنها تسترجع الحنان القديم .. يأتيها مرة بعد مرة ؛ فتنفرد به .. يعلو صوتها ؛ نحسبه هذياناً .. تلتقى عيونهما ؛ فتشعر بدفئه .. يحكى لها عن ذكرياته ، وتسترسل فى عذاباتها .. ترى إصراره بأن يتشابكا ويجريان فى حقول ووديان الأرض السليبة !!

ذكرياتها مع يوسف لا تنتهى ، وعندما تندفع الصغار خلفها فى الشارع ، تصيح وتضحك حتى تدمع عيناها ثم تصيح بقوة :

" الجسر يا يوسف .. أنت الحبيب .. أنت الأهل !! " وتظل عيناها عالقتين على شئ عذب فوق شجرة السدر المورفة ، وتُجيب كأنها تُسأل ، ولا تلتفت إلى الجمع !!

يطول حوارها فى غمغمة مرتجفة تترف قلوب الخلق ، ثم تشير بيدها فى وداعة وتصميم :

– " حتما سيعود "

ثم تنطلق بأقصى سرعة إلى الصفصافة التى كان يجلس تحتها .. يداها تشبثان بجذع الشجرة ثم تميل بعنقها نحو الماء تُحدق فى رسم جميل .. ينحسر جلبابها عن ساقيها .. يسترها الماء ، ويطول البكاء قبيل الفجر أسمع خطواتها على باب الخلوة .. تنادى :

– عم طريقى .. أنا شامية .. حبيبة يوسف .

قالت هكذا ببراءة وثقة كاملة كأنما تنطق باسم رمز من رموز البطولة .

افتح لها الباب .. أجد ملامحها مؤثرة جداً .. تملك عينين

مترقبتين.. تنظر فيما حولها ثم تُودعنى صُرة ممتلئة بشعور الماعز .. ثم تنطلق فى الفضاء الوسيع قائلة :

– أجئ إليك بعد قليل .

وبكل حنان أدعو لها الله العظيم أن يحفظها .

يوسف يا أبنائى كان لشامية الحبيب والأهل والوطن .. يوسف الذى رأته جميع القرى والنجوع قتيلاً تحت الجسر العام الماضى فى موسم الخريف !!

كان بالأمس فى كامل نُضجه .. تلح عليه كلمة حتى صارت من لزومياته كلمة " التطهير " وكان يحمل لافتة من جلد الماعز نقش عليها فكرة اختراعه ، ودارت الأيام وهو يحوم حول مدخل الجسر .. أُنسى الرعب والخطر المحدقين به .. المشاكسة كانت حليته ..قلت له:

– لا تخشى الموت ولا ضراوة الجوع يا يوسف .

قال لى :..

– يمكن أن نضع حداً لذلك كله يا سيدى الشيخ .

قلت له :

– قد يكون حظك أفضل من غيرك .

وانحنت شامية على أوراقه تُنضدها ، ورأيتها تقترب منه فى غمغمة مفهومة :

" خوف عليك يا يوسف .. يفزعنى شعور أنهم سيبطشون بك "

هكذا همست شامية لكنها أحست بكفه ترتخى خلف ذراعها وقال:

– لن يظل الباب مغلقاً .

أراحتها هذه الكلمة ؛ فبقت ممسكة به بينما غاصت نظرات يوسف فى الأفق .

تركنا يوسف ، وفى أول الطريق لم يسمع سوى أصوات الطيور المبكرة التى رافقته ، وبمجرد اقترابه من الجسر خفتت أصوات الطيور، وبدت أصوات غريبة ، تابعته وهو يتسلل ويحوم ثم اندفع للأمام بثقة فوق الجسر ، ولما اصطدم بإحدى نقاط الأقزام شاكسهم ؛ فتخطى الكمين .

وبعد مسافة أحس بالوجع يدق فى رأسه حين دخل فى اشتباك مُباغت ، وانطلقت قنابل ، وانهالت قذائف من فوقه ومن تحته !! وامتلأ الجسر بالجليد !!

ومن هول الفزع صرخ يوسف ، يرفع يده بأوراقه كأنه يزهو بيأسه !! أصابت إحدى الشظايا ساقه ، وأُخرى أصابته بجروح غائرة بين عينيه ، وواتته لدغات أشد ألماً ؛ فضاقت حدقتا عينيه واتسعتا وهو يصرخ ، ثم راح يئن إلى أن مات تحت الجسر مع الذين ماتوا هنا !!

ظنى لا يخيب فيكم يا أبنائى .. لكن عليكم بشحذ القريحة وإشعال الذكاء ، وإنارة البصيرة .. اعملوا بالأسلوب الذى اعتدتم عليه ؛ فلا ينبغى أن يضيع الوقت سُدى .

هكذا قال لنا سيدى الطريقى هذه الليلة .

* * *

* فى ليلة من ليالى الغروب كانت العاصفة تشتد فى الخارج ، فتضاعف شعورنا بالمسئولية عقب زيارتنا الأخيرة للطريقى

.. فى هذه الليلة قال قاسم عبد المغيث :

– العاصفة لازالت تشتد !!

توترت مشاعرى حيال هذا الموقف ، وشددت علـــى كتفيهمـــا وقلت بنبرة سوية :

– ينبغى أن نستدعى ما يُحفزنا طيلة الوقت للوثوب .. نعمل بلا ريب حتى لا يُغلق الباب نهائياً فى وجوهنا ..

فى الليلة الماضية قال سيدى الشيخ الطريقى :

" يا فضل يـــا ولـــدى .. إن هـــؤلاء المرتزقـــة يلعبـــون لعبـــة الإسكان ، فعليك أن تظل معتزاً بفكرك رغم أنك ميـــت الآن ، ولا مناص لك عن مراوغة الموت لتواجه هذه اللعبة "

* *

* فى معملنا الصغير ؛ نُقشت هذا الكلمات على كل شئ أمـــام عيوننا ؛ فاجتررنا الأحداث ، وتأكدنا من أن يوسف ، وشرف الدين قُتلا فوق الجسر بهذه الطريقة القسرية ، وشاهدنا أحداثاً جديـــدة ، وعلينا أن نختزلها ، ونستدعيها عند الحاجة .

* *

* ولما بدأنا نستطلع جاءنا فتيان القرى والنجوع ؛ معظمهـــم لا يكبروننا فى السن ، وغردت عصافير البرارى من جديد .

وزارتنا أم شرف الدين التى طلبت منا يوم قتله تكفين ولدها بثيابه التى مات بها !!

وصرخت لنا من جديد ؛ لتعلن حياة ولدها القتيل !!

ولَفظت كل ما بداخلها من أسرار .. قالت :

– " ولدى قتيل هذا الورق .. ليلتها صرخ وقال :
لن أطيع الأمر .. الاندفاع إلى الهلاك أبقى وأخلد "

* *

* لاحظنا أثناء جلستنا فى معملنا الصغير ؛ أن تجميع ذوى الملكات من أفراد القرى والنجوع ، وبث روح النضال فيهم خير ما يمكـــن حتى لا نعى الوقت الذى يضيع سُدى .

وفاضت الليلة فى موعدها ؛ فانتبه قاسم عبد المغيث قائلاً :

– هذه فكرة الخطوة الأولى التى نتشبث بها حتى آخـــر لحظــة .

وتسنى لصـــابر حمـــدى أن يرفـــع رأســـه يشـــم الهـــواء بحريـــة وهو يقول:

– سوف تُسمع أصوات الفتح الجديد معلنة افتتاح أبواب المنابر .

* *

* فى ضحى هذا اليوم بدا الأمر نوراً يتشكل فى هدوء ، ويمتد إلى أخرنا .

حيث بث كل منا ابتكاره فى المعمل .. فى تلك اللحظة الخالدة . رأينا شامية البدوية تشب على أطراف أصابعها فى الخارج ؛ ترنو إلينا من خلال النافذة . قلت :

– يبدو أنها متحفزة لحديث ما .

وهمس قاسم عبد المغيث :

– إنها تكتفى بإشارات .

أجابه صابر حمدى مستفهماً :

– بماذا توحى إشاراتها ؟!

أجبتهما فى تفكر :

– إشاراتها توحى إلى معنى التغير أو الهدم والبناء .

هكذا قلت ثم رأيتها تثنى على هذه المحاورة بابتسامة كأنها تـزف بشرى للجميع .

وهمت بالانصراف فرجوتها أن تبقى .

* *

* ترامى أمامنا فجر جليل ؛ فانشرحت صدورنا بالأمـل . قـال الرفيق الجديد فواز عبد الرحمن فى هدوء جميل ، وكان أصغرنا سناً :

– ثقتى من أن ثمة تغييراً سوف يحدث .

وافقته :

– أجل يا فواز سوف تتبدل مصائر أقزام يظنون أنهم أكثر أهميـة من غيرهم .

وطالعنا صوت قاسم عبد المغيث وهو محنى برأسه على المخبار:

– سوف يتغير تصورهم عندما يجدون أنفسهم فى ظُلمات الحبس.

تبادلنا نظرات طويلة ثم انسكبت الاقتراحـات علـى المائـدة ، وكيف يتيسر لنا تنفيذها فكرة بعد فكرة .

* *

* .. مساء ذلك اليوم ، أدركت أننا عبأنـا الخطـة ، وهيئنـا لتنفيذها، وكانت الثقة تحالفنا كأنها رسالة قدسية ؛ فتمنينـاً حظـاً سعيداً فى الغد .

* *

* وبعد انتصاف الليل سمعنا نقرات خفيفة على الباب وإذ بسيدى الشيخ الطريقى يتمتع بشكل مهيب ..

قال باسماً ، وهو يتقدمُنا إلى المعمل :

– مال الحال التى أنتم عليها ؟

أجبته :

– على ما يُرام يا سيدى .. لكن فى بعض الوقت نتحاور ثم لا نكاد نستقر على خاطر حتى نراه ينفلت :

قال الشيخ بعد ما نظر فيما حوله :

– أعتقد أنه بسبب الإسراف فى سوء الظن .. سوء الظن يزيد الموقف عصياناً .. لابد من وجود مَنْ هو مُنصف رغم سوء الأحوال استخدموا جميع الوسائل تمهيداً للوصول .

هذه من ناحية ، ومن ناحية أخرى حاولوا التنوع والتميز لكى لا يكون هناك أى شبه يؤدى إلى عدم القدرة على التفريق .

سكت الشيخ برهة وهو يُوجه نظرته إلىّ ثم سألنى :

– ماذا فى رأسك يا فضل ؟

قلت بصدق :

– أشعر الآن بنبض فى رأسى تماماً مثل نبضات القلوب ؛ إلا أن ثمة هاجس يُثير فىّ إحساساً بالخوف !!

رمانى بنظرة تغنى عن الجواب .

ولما احتل الشيخ مكانه وسط الحلقة جال بنظرة حتى وقع بصره على فواز عبد الرحمن ؛ فأومأ إليه ليقترب منه ومال على أذنه هامساً :

– ارفع رأسك ؛ لتسمع الصرخة ، وانظر إلى أعلى حتى لا يخفق القلب ويجف الحلق .. انغمس فى السعى .. العمل ، فعلى المرء أن يسعى وعلى الله نجاح المسعى .

أحنيت رأسى آسفاً ، وأنا أتحسس ساقى العرجاء !!

ابتسم الشيخ مستعطفاً ، ثم راق وجهه وصفاً ، وقال :

– تجملوا بالصبر .

أثناء ذلك :

كانت الريح تجهش بالخارج ، وتتسرب إلينا من فتحة بالجدار ، وكان فناء الدار يبدو أمامى بارداً وشبه مظلم ، فرحت أنظر إلى الفناء ، وجدران البيت ، ومحتويات المعمل من جفان نحاسية .. مسحوق الكبريت .. شعلة النار .. تابعت كل ذلك فى صمت وحيرة كأننى أعانى من مشكلة عظيمة .

وكانت الصالة المجاورة غير مرتبة وغير نظيفة بدرجة كافية !

* *

* ولما عوت الريح بالخارج تنغص صفوى ، وتلاحقت داخلى الذكريات القديمة التى ألمت بالنجع !!

تفرس سيدى الشيخ وجهى ، وقال بشئ من العزاء :

– هذه هى الحال على حقيقتها الخشنة .. لا بأس .. إلا أننى أشعر بصمتك يغلى .. تبدو كأنك سجين فى الزنزانة !

قلت :

– من وقت لآخر تنهشنى الأحداث بشكل غير لائق !

قال :

– أنت فى حاجة لأن تنعم بشئ من الهدوء الضـــرورى . هـــذا الوقت المتأخر من الليل مناسب جداً لمشاهدة مفردات الكون الــتى تمحى الغُصة .

دع الرفاق يُرتبون المعمل .

*   *

* مع دفقات الهواء التى لا تبعث على الضيق .

كان الشيخ مُطرقاً للأمام ، وكانــت عينــاه متــألقتين صــوب السماء ، وقد تشابكت يدى النحيلة فى يده الدافئة ، ورنوت معه إلى السماء فى هدوء ، وفجأة طفرت الدموع إلى عينى – عندئذ تملــى الشيخ وجهى وقال :

– هذا أمر مهم .. هذه الدموع تستطيع أن تساعدك إلى حد كبير .. أمارات التأثر واضحة .. تتبدى فى طريقه وقفتك ، وأنت تطّــالع مفردات الكون .. إنها القوة كامنة فيك ، وهذه هبة أكثــر قيمــة ، يتضح ذلك فى مستقبل أيامك .

*   *

* أصغيت جيداً بينما كان الشيخ يتحدث ورأسه البــاهر مائــل بالقرب من وجهى ، وأنا مستغرق ، ومتأثر بصورة واضحة .

وفى لحظة عارضة تغيرت ملامح الشيخ ، وغارت ابتسامته كما لو أصيب بحزن عظيم عندما شاهد " نعمان " يجرى بشكل مُتهدم ، وقد تلفح وجهه بهالات من الطين ، غارقاً تماماً فى غيبوبته .. ينكفئ على نبات العاقول المر يأكله ويُغمغم !

ولما تأكدنا أننا لا نستطيع عمل أى شئ له قال الطريقى :

– لقد غرق فى عالم وحده من غير شك .. ليساعده الله .

*　　*

* واصلنا السير ، وأنا واجم ومضطرب للغاية ؛ ومن هول الموقف لم أنطق بكلمة واحدة ؛ فقط – استرقت النظر إلى شـامية البدويـة حيث أذهلنى هذيانها وانكسارها وحركات　　يديها ، وقبوعها فوق النبقة العجوز ، وتوددها إلى المغزل وشعور الماعز .

عاودتنى زكريات حميمة ، ومَجد متهدم .. قرأت معانيه تماماً .. هذيان شامية كشف عن أشياء من خبايا النفس .

ومن بين هذيانها واصلتْ نظراتها الحكيمة المحذرة وهى تقول من بين فروع النبقة :

– " أنا لا أحب هذا الجفاء يا يوسف ! .. خبرنى مما تخاف ! لماذا لم تأت ؟ !

*　　*

* نظر إلىَّ الشيخ ببصيرة نافذة ؛ فانتزعنى من صمتى وهو يقول :

– أراك الآن جاداً للغاية يا فضل .. لكن لابد أن تكـون هنـاك حركة من أجل النطق .. ينبغى أن تعلم ذلك .

قلت بصوت مُتهافت حزين :

– رطوبـة المنـاخ ، وجـو الواقـع الثقيـل ، والـدخان والغيوم ، والضباب الرمادى جميعها تلف الواقع بطبقة كثيفـة مـن القتامة والكآبة !!

رنا إلىَّ الشيخ باهتمام ومحبة ، وقال :

– لذلك ينبغى أن تضيئوا المصـــابيح ، ولا تملـــوا الصـــناديق المحملة بالزهور .

* * *

* صباح اليوم التالى .. كان صباحاً شديد البرودة ، ولم تظهر من الشمس إلا خيوطاً واهنة ؛ فلم أستطع تدفئة نفسى أثنـــاء الطريـــق لشدة هبوب الرياح الباردة ، ورعدها الذى يصم الأذان ، وخلـــت الشوارع تماماً من الناس ، ولم يُسمع إلا أصـــوات ضـــعيفة خلـــف الأبواب المغلقة .

وعندما دنوت من الشارع الذى انعطف من خلاله إلى بيتنا لم يكن هناك أيضاً سوى الرياح العنيفة ، والأتربة الصفراء التى تملأ الجـــو ، وبدت شجرة النبق العتيقة شاحبة ، والشجيرات الصغيرة حولها تهتز ، وترتعش بعنف من شدة اجتياح العاصفة .

وعند مرورى ببيت جارنا العجوز توقفتُ مُرهقاً – كانت ساقى العرجاء قد ألمتنى !

وقبل أن أطرق الباب ؛ استولت علىّ الدهشة وأنا أرى العجـــوز جارتنا التى لم أرها منذ وقت طويل .. رأيتها شابة فارعة تمشى بثقـــة وتصميم فى حوش منزلها باتجاه قرص الشمس المنسكب علـــى ســـور الحوش .

أقبلت الأطفال عليها تحيط بها فى اهتمام ، وجلســـت مســـتندة بظهرها علـــى الجـــدار ، وجلســـت الأطفـــال حولهـــا فى حلقـــة متصلة ، وكانت طفلة تلهو على مقربة منها نادت عليها :

– يا بنت !!

رأيت قدميّ البنت تتحركان بخفة حتى أخذت مكانها فى الحلقة .

–تعالى يا بنت أنت تحلمين .

تعال يا ولد .. أنت دائماً تعشق الحواديت .

حكاية الجسر .. حكاية غريبة .

التصق الولد بأخوته ، وأمال عنقه ناحية الجدة العجوز .

وقالت العجوز بلهجة مؤثرة :

– " كان ياما كان ، ولا يحلى الكلام إلا بالصلاة والسلام على نبينا خير الأنام "

فى أحد لأيام كان ابن كبير البلاد يمشى بحصانة فخوراً فى لموكب حيث كان يمر من أمام البلد من البر الثانى إلى بركة الصيد كل صباح.

ولما اقترب ظهر له ضوء من بعيد من بين الحقول الممتدة يميناً ويساراً ولما وقف توقف الركب يلقى على نفسه عشرات الأسئلة لماذا وقف الأمير الصغير ؟ .. ماذا حدث ؟ .. ماذا يبغى ؟! وعندما تأكد من مصدر الضوء اكتشف أنه صادر عن بنت صغيرة تختفى بين أشجار الفول ، فتحرك ومضى بحصانه فى خطوات هادئة ، ومضت فى رأسه فكرة أن يقفز المصرف بحصانه ونجح فى أن يلقى نظرة على ما بداخل ست الحسن والجمال حيث كانت تسير على أطراف أصابعها بين عيدان الفول . مع البنات وحدق فى الموكب ، وكانت أخفهن حركة ، وبياضها أنصع .

تأرجح عقله ذات اليمين وذات اليسار ، وقال :

– كيف أستفيد من عشرات المغـــامرات الـــتى خضـــتها .. ألا تساعدنى فى أن أخرج من هذا المأزق ، وأعبر هذا المصرف بالحصان؟!

ولما سمعت البنت صوت حوافر الحصان تسقط فى المـــاء جـــرت وسط الحقول .. قفز الحصان قفزة هائلة ؛ فانغرست قوائمه فى الطين فأدار عينيه إلى عينى العاشق ، وراح يصهل ، على حين رقبة ســـت الحسن ازدحمت بالتمائم والاحجبة والخـــرز الأزرق لتمنـــع عنـــها الوحوش .

بينما وقف الحصان على رجليه الخلفيتين يقوس ظهـــره فيكـــاد العاشق أن يُلامس الوحل بقدميه النظيفتين ، يضربه على عنقة فيلتاث الحصان .. يكبو تثنى ساقاه الأماميتان .. يكاد يســـقط .. تشـــتعل ضربات السوط .. ينتاب الحصان جنون .. يقوس ظهره كأنما يريـــد أن يقذف به بعيداً .. الضربات تلاحقه .. دار الحصان فى الوحل حتى انزلق لسانه على صدره ، ولم يحس العاشق بأن

اللجام وقع من كفه الممسكة عليه .

لم تخف رعشة الغضب فى عينى العاشق فاستمر ينـــاطح الكمـــد وخزى الفجيعة ، وغاص فى الطين يعبر المصرف ، واسترســـل حـــتى انفتح ذهنه عن فكره بناء الجسر .

* *

* هكذا قالت العجوز لأحفادها ، والشمس الكســـيرة لازالـــت تتمدد على حجرها ، وتنسكب أمامها لتمثل بقعة فضية فوق أرضية الحوش الوسيع .

فى تلـــك اللحظـــة . رأيـــتنى أقـــرأ المعـــانى المخبـــوءة بـــين

كلمات العجوز .

وراحت الخواطر تتابع فى ذهنى مُتشابهة وغير متشابهة إلا أنها تدور حول نقطة واحدة ؛ وهى أن هناك حادثاً خطيراً على وشك أن يقع.

ولم أنكر الهواجس التى تنتابنى كلما ألمح شيئاً جديداً فى حلقة العمر الضيقة التى نعيش فيها ، ولكن ما عساى أن افعل ؟ ! ؛ إننى كلما وجهت هذا السؤال إلى نفسى ؛ أستغرق فى البحث عن جواب ، وبرغم هذا الفيض المضطرب من الأحاسيس ؛ فإن اليأس لم يتسرب إلى نفسى ، لا سيما وأنا أدرك أن علىَّ رسالة

بودى تحقيقها فأهمس لنفسى من وقت لآخر :

– " لن أفزع عند دنو الخطر مهما كان ، ولم أنكر صورتى ، وعلى أية حال – سأجد فرصة طيبة لتخفيف الدموع ولن يستولى الوجوم علىَّ . "

هذا ما قاله فضل محمود لنفسه ، ثم توجه إلى معمله الصغير يلحق برفاقه .

* *

* من وراء باب المعمل تردد تيار نسيم ما قبل الغروب بأنفاسه الرطيبة ، وما لبث أن التف الرفاق حول فضل محمود ، وتحدثوا بعض الوقت عن شئونهم الخاصة ، وأعلن قاسم عبد المغيث عن علاقته بفتاة جميلة تلوح له فى الأفق . وضحك صابر حمدى ، وفواز عبد الرحمن ولكنهما لم يعلقا على قول قاسم . وراح فضل يهمس ثم جذب نفساً طويلاً ثم زفرةً متأنية وقال :

– كل منا لا يخلو من حب .

هكذا قال ثم شرع فى نشاطه هامساً :

– المسألة ليست فى حاجة إلى نوم .. ينبغى معالجة الموقف بالعمل أسرع إلى مخبارٍ ، وانكفأ برأسه وعينه على الأنابيب والمساحيق ونهض الرفاق ينشرون أدوات التجربة .

* *

* ولما لاحظ الرفاق أن شيئاً ما يؤلم فضل محمود .. سألوه باهتمام حقيقى :

– ما بك يا فضل ؟ !

– حلمت وأنا مستغرق فى العمل ؟

– بماذا حلمت وأنت يقظ ؟ !

– حلمت كأن طلقات رصاص تدوى فى رأسى !

– ماذا تعنى ؟ !

– بودى أن تفهموا ما أعنى .

بعد لحظة صمت أجابوه :

– مهما يكن من أمر ، فيجب ألا نُضيع الوقت .

– تماماً ، وهل اتضحت لديكم معالم المعبر الجديد .

– مازالت لدينا عمليات بحث عن وسائل للتطهير .

أدرك فضل ما تعنيه الكلمة ؛ فانهمك معهم فى خلط المساحيق ومشاهدات التجارب وأردف :

– لا يجب أن تتأخر دقيقة واحدة .

* * *

* فى شوارع وأزقة النجوع بدا نعمان منفعلاً وغاضباً يتبدى ذلك

من حركات يديه واهتزاز رأسه ، وتبريقة عينيه إلا أنه يظل معقـود اللسان .. يتطلع ويسترق النظر بين حين وآخر إلى وجوه البنـات ، وقد بدا أن لديه أشياء كثيرة يريد أن يفصح بها .. يحاول تمييز الوجوه .. بينما البنات يرقبنه وهو يمضى فى مراقبتهن ، فيفرضن عليه القيام بذلك الفعل ؛ فتجرى بنت فى طريق الجسر ، وتُوهمه بأنها تحادث رجلاً غريباً "

فيصرخ نعمان بحسم ويزداد ارتباكاً ، ويجرى خلفها يحـاول أن يُغير مجرى طريقها ؛ فتنفلت البنت منه بهدوء وتتنهد ، وتتطلع إليـه وهو يلهث مُتعَباً .

* *

تشرد عينا نعمان وهو جالس فى وسط الطريق كما لـو فـوجئ بسؤال فيغمغم :

– البنت التى تأتى هنا .. أحرقها على الملأ .

* * *

* احتوى الطريقى شجرة السرو الصغيرة بساعديه رانياً مـرةً إلى ضوء القمر الهادئ ، ومرة لشامية البدوية القابعة على حافة الماء.

لم يكن الطريقى يعلم أنها هنا تعزف العزف الجميل للماء بإحساس رائع بإيقاع يحظى بشئ ما يربطك به ويحملك على حبه .

وجدها جالسة إلى الماء الذى يجلب البنفسج ، وبدت له بعيـنين حزينتين ، غارقة وشاردة تهمس للماء بعبارات مُفككة !!

* *

* ولما رأت الشيخ أومأت برأسها ، ومضت فى العـزف حيـث

تمددت ذراعاها فى الماء وبدا على وجهها الاستغراق .

همس :

– متى ؟ ! .. الليلة ؟ ! .. هذا رائع .. فى أى مكان تحب أن تبنى كوخنا الجميل يا يوسف .

* وما أن مشى الطريقى بضع خطوات يقترب منها حتى رآها تقاوم بيديها ، وتنتفض مثل عصفورة تحاول التملص .

تحول إليها الشيخ بحب استطلاع وقليل من الارتباك قائلاً :

مالى أراك يا شامية كما لو أن لجة تبتلعك ، أو كما أن مجموعة خرجت من أطباق الظلام وقيدتك من ذراعيك !!

* *

* وما هى إلا لحظات حتى رآها تصرخ بأنشودة حماسية صوب الماء ، ثم صمتت فجأة تنفض الغبار عن كسرة خبز جافة !

* ولما وقف الطريقى فوق لسان الشاطئ التى تجلس عليه ؛ رمقته بنظرة لتؤكد أن يلزم الصمت هذه الدقائق ، وألا يصدر عن وقفته أى صوت يُسمع .

كانت مُنشرحة للغاية ، وقلبها يدق بسرعة ، وتضحك على استحياء وعيناها على صفحة الماء .

ثبت نظره هو الآخر على الماء الذى يضوع منه شذا ذو نكهة أُنثوية ؛ فكاد يرى رأس رجل بوجه خارق البهاء يبتسم وحوله شموع تشع بأضواء غير مألوفة ، تُبدد الظلمة المتبقية من الليل ، بينما لازالت شامية تصيح فى حماسة :

أزاح الوجه رغوة الماء فانحسر عنه .. صرخت شامية :

– " جئت فى الوقت المناسب "

*　　*

* أمعنت التفكير بصورة دائمة فى مستقبلك يا شامية ، وكانت آلاف الأفكار الأخرى تطوف بعقلى خلال اللحظة الواحدة : خطط تتعلق بالجسر ، وبيوت النجع ، ولكن التفكير فى فضل محمود كان دائماً مناط كل شئ أبدأ به وأنتهى إليه .. أقول عنه بصفة خاصة :

– أنه شاب ذكى مهموم ، وسوف يكون له شأن عظيم .. أراه يندفع .. يعمل دون رحمة بنفسه .

هكذا قال الطريقى ثم استدار إلى شامية ، وواصل حديثه :

– " لم أعد أفهم ما تريدين يا شامية .. ألا تستريحين بعد كل هذا العناء .. عيناك عالقتان بعينى يوسف الحبيب .. هل تسألينه عن أشياء فيجيبك ؟ ! .. لماذا تضحكين هكذا ؟ ! لابد أنك تضربينه على كتفه فى ملاطفة .. هل يرى إصرارك وصياحك ؟ !

لماذا تهوشين بيدك فى الهواء هكذا ؟ !

من وقت لآخر تجددين فينا الحلم .. هل أجلسك بجواره تستعيدان حناناً قديماً ؟ ! صوتك يعلو وأنت تستقلين برأسك على صدر الماء .. تشعرين بالدفء .. الماء يربت على كتفيك يحاول تهدئتك .. الصراخ يخف .. استحال إلى نهنهات تعلوها ابتسامة حائرة .. تحاولين إخفائها بين عينيك الذابلتين .

الماء يلثم وجهك ، وتجويف كتفيك .. ترقدين دون حركة ، بينما عينك تنظر إلى غاية بعيدة موفقة ومحبوبة .

* مع نسمات ساعات الليل الأخيرة .. فتح فواز عبـــد الـــرحمن نافذة المعمل وقال لرفاقه بارتياح :

– نستطيع الآن أن نتنفس بشكل أفضل .. ليس من العـــدل أن يموت الإنسان مُنعزلاً .

اقترب منه صابر حمدى باسماً وقال :

– ما أعظم الموت من أجل فكرة نبيلة .

مضى فضل محمود إلى النافذة بحماس ثم أشار إلى رأس قاسم عبد المغيث وقال :

– غايتنا بناء عالمنا الجميل .. أليس كذلك .

أجاب قاسم :

– أجل .. ولا سبيل إليه إلا العمل ، وعدم الخضـــوع للوصـــاية التى لا تنتهى .

هكذا تحاور الرفاق ثم فصل بينهم لحظة صمت فراحوا ينظـــرون من النافذة حين ترامت من الخارج سعلة معروفة لديهم ، فرنـــوا إلى الشيخ الطريقى وهو يتسلل بخطاه الوئيدة فى هذا المساء المتكانف .

طرق الباب وتركه مفتوحاً ، وقال :

– أرى النسيم يدخل المعمل ، وينعكس نداه على الجدران .

تهللت ملامحهم بالرضا ؛ فابتسم الشيخ واستطرد :

– الله المساعد .. أرى الغرفة تعلو أكثر علواً مما كنت أظـــن .. كنت أخشى على عقولكم من السقوط بسبب العنف :

هتف قاسم عبد المغيث قائلاً :

– إنهم لا يحركون العالم مهما تكن حيلهم ذكية .

وقال صابر حمدى بصراحة :

– إننا نكافح من أجل حياة أفضل على هذا الكوكب حتى لا يُستغل الإنسان مثل حيوان .

ابتسم الطريقى ابتسامة صافية وقال :

– ليس عيباً أن تنشدوا لأنفسكم حياة كريمة .

وقال فواز عبد الرحمن فى تصميم :

سيستمر الكفاح .

قال الطريقى بصوته المتمهل العميق :

– أنتم منتصرون بذاكرتكم الهائلة .. المهم عندى التذرع بالصبر ؛ لتتوصلوا إلى النتيجة المعقولة .

هكذا حاورهم الشيخ ثم تحول جانباً ؛ لينظر إلى فضل محمود وهو منهمك فى التجربة ، فرأى كأن مصابيح تنساب كأعمدة من نور ، ومن الأفق البعيد عن مجال البصر حمل النسيم أنغام غناء وموسيقى فتح قادم ؛ فبدا على الطريقى اهتمام من نوع خاص

ولكأنه يرى فضل محمود لأول مرة .

اقترب منه ، وربت على كتفه هامساً بتضرع :

– فليحفظك الله .. اعتز بالأشياء التى ابتدعها عقلك ، ولا تهتم أن تكون مقتولاً بدون قضية .. اجتهد حتى يكون موتك أكثر مهابة ، أو يكون موتك محيراً لهم ، وإلا فاللوم يقع عليك وحدك ؛ إن لم تتم العمل .

وفى النهاية مدَّ يده إليهم وصافحهم واحداً واحداً ثم أضاف :

– لاحظوا أنكم توليتم القيام بوضع حد لحياتكم .

عند بئر ماء على مدخل النجع ، وقف نعمان يلحظ صفحة المـــاء بعمق ، لم يفزع ولن ينفر إلا أن قشعريرة ثارت فى بدنه كأنما أصابته رؤية ما عن مجرد الرؤية بالعين ، ولكن لم يحول مجرى نظراته عن الماء كما لو يستجير بها ، أو رأى تطهير الحياة تركز فيها .

بعد قليل من مواصلة الكشف انزعج — يبدو — أنـــه اســـتجلب بسؤاله غضباً على غضب ، فجمحت روحه وحاصرته ثورة وانفعال حتى اختنق فغمغم :

— التطهير بالزجر والدم .

فى هذا الوقت فاجأته شامية البدوية ؛ فهتف بود حين رآها تمـــد كفيها إلى وجهه ، وتمسح دموعه .

فتح ذراعيه ، وضم رأسها واحتضنه... تطلعت إلى وجهه رأتـــه ينضخ بمواصلة البحث والزجر حيث تنهد ، وتطلع إلى بنت تقتـــرب من لسان الشاطئ ، ولما تبينت البنت حضوره استدارت وأســـلكت طريقاً أخرى إلى النجع .

عقب ذلك .. قبع نعمان تحت شجرة النبق العجوز ونـــام مـــلء جنونه كأنه حسم أمره .

* * *

* فى هذا اليوم بدا على فضل محمود أنه مضطرب وقلق للغايـــة حيث همس فى حزن :

— لم أكن أريد أن أفقد دقيقة واحدة .. لقد تأخر الرفـــاق عـــنى هذا اليوم !! ربما أعاقتهم مشكلة نعمان الليلة الماضية ..

ولما سيطر عليه القلق راح يتمشى ما بين النافذة والباب وأوقـــد

الشعلة ، وارتفعت داخله أصوات مؤذنة بالأمل متى شعر بأنامل الراحة تلاطف باطنه عندما رأى الرفاق قادمين ؛ فاكتمل المعمل ، وتبادلوا نظرات عميقة ، يتطلعون معاً للطريق والبيت .

ابتسم فضل بعد أن حانت منه التفاتة إلى ابتكاره ، وعقب :

– " سأشدك إلى كتفي وأسعد "

هتف قاسم عبد المغيث :

– حسنٌ .. بالقدر الكافي من بهجة حياة العمل اليومية نتهيأ لبدء الاشتباك الحقيقي ؛ فيتحول المعمل إلى أثر حي ينفعل بما ينشأ ، وما يزخم به الواقع من شرائح ومفارقات .

همس صابر حمدي بصوت غريب هذه المرة :

– هل نحن قادمون على أمر سليم .. ألا يحتمل أن نتعرض للمتاعب هذه الفترة :

– منذ البداية توقعنا المتاعب ، وعايشتنا .. أرجوك لا يجب أن نحتج ونتجادل فيما لا يُجدى !

وعقب فواز عبد الرحمن :

– أجل .. لا ضرورة للمناقشة في هذه المتاعب .. إنه أمر متوقع .

وضع اسم صاحب كل مبتكر على ابتكاره ، ثم تلمس عيونهم في فخر بالغ ، وقال :

– حسنٌ .. لا يجب الخلط .

وفجأة أجاد الإصغاء إلى نفسه في هدوء – كان يُصغي بينما الرفاق يتابعون استغراقه ، متأثرين به للغاية ولما مال برأسه الجميل إلى النافذة .. سألوه في دهشة :

ماذا أصابك ؟ !

أجابهم فى تحمس ، وهو يتسلل بعينيه إلى الأنابيب ، والجفان النحاسية ، والمساحيق ، وشعلة الغاز :

لا شئ .. هل غابت عن أذهانكم قيمة الشرود ؟ !

لقد جاوزنا حد الهزات العنيفة .. لا تملوا .. إننا على وشك العبور .

هكذا قال ، ثم حام بطريقة ثابتة يدعوهم لمراجعة . أوراق الابتكارات ، ثم أخذته قيمة من الفكر فى ردهات أوراقه ، وانساب حثيثاً فى مشارفها حتى اشرف على آخر ورقة ؛ فأطل من نافذة المعمل يتلهف لرؤية شئ محدد ، وتمنى لو حدثت معجزة ، ورأى التخطيط يتهادى إليه سهلاً — إن سعادته تكون كاملة — أثناء ذلك : قادته بصيرته إلى اكتشاف منطقة للعبور بالابتكارات .

ولم يمض قليل من الوقت حتى هدأت نفسه ، وقال :

— الليلة نُناقش كل الأعمال التى تمت .

* *

* أعقب ذلك لحظات صمت استرسل .. فيها فكر عميق ، بينما ارتفع صوت الهواء يُدوى فى الفراغ ، ويُناوش جدران المعمل ، فاصطكت النافذة الأمر الذى جعل فضل محمود غير مستريح فى وقفته ؛ فقال مخاطباً رفاقه :

— ينبغى أن تتسع حلقة معارفنا بكل أنواع الأشياء حتى لا ندور فى حلقة صغيرة مرات ومرات .

هكذا قال ثم مازح صابر حمدى قائلاً :

– مالى أراك تقف فى وسط المعمل هيكلاً بسيطاً صغيراً فى مواجهة هذا الريح ؟ !

أجابه صابر حمدى :

– أظن أنها لا تضايقنى إلى هذا الحد .. إننى أحتج .

قال قاسم عبد المغيث :

– أجل : يجب أن نحتج فى هذه الآونة بالذات ؛ لنقرأ الحال على ما هيتها . ... عقب فواز عبد الرحمن :

– اتفقنا على أن فى العمل النجاة .

التقت نظراتهم الودودة ، وقالوا بوقت واحد :

– على أية حال لا نزال نحس بلذة الحياة ووجوهنا ملتصقة بالتجارب .

بعد لحظة صمت قال فواز عبد الرحمن :

– ماذا يحدث لو فكرنا الآن فى كتابة رصدية عن سيرة الهيمنة والمحسوبية ، والسرقات ؟

أجابوه :

– ياله من موضوع مُؤلم .. سوف نمدك بالحقائق والوقائع .

قال فضل بمرارة :

– ثمة حقائق مؤلمة بالفعل .. الطبقة التى تحارب الفساد يتوغل فيها الفساد – على أية حال – هذا أنسب وقت لإنجاز هذا الرصد .

* * *

* حل النهار بدفئه الخاص ، ونشرت الشمس أشعتها الساخنة ؛ فلسعت عينى نعمان النائم فى حضن النبقة العجوز .

انتفض حين تصايح الأولاد والبنات يتسلقون شجرة النبق .

شب نعمان كأنما اهتزت الأرض من تحته ، وراح يتسلل وجـوه النبات بنتاً بنتاً ، وهو لم يـزل فى صـمت وحشـته ، يمضـى فى اتجاه الوجوه ، ويحاول من جديد حتى خفن منه .. سعل سعالاً شديداً وبكى ، واستغرق فى البكاء ، ولم ينتبه إلا حين باغته الطريقى بوجهه الباش .

تمايل الطريقى نحوه ، وأعطاه قطعة من الحلوى استقبلها نعمـان بحب ، واندفع راكضاً وقد علا صوته هذه المـرة يتـردد صـوته فى النجوع والوديان ، وصرخن البنات فزعاً ، فإذا بـالطريقى يرفـع حاجبيه ، ويفتح عينيه على اتساعهما ، وينادى على شامية .

– هل هذا وقت الولولة يا شامية .. خذى هذه الكعكة .

* * *

فرَّ نهار ذلك اليوم سريعاً ، وحَّل الليل والسكون .. عيوننا تلتقى وتنفصل فى حذر – لا شك أن ثمة مشاعر متدفقة تربطنا وذكريـات ومواقف تعاودنا بصورة الطريق المجهولة ؛ فانفتحت مداركنا علـى سعتها تترقب الفجر الوليد ، ولدينا الخطة والرائحة القديمة .

ولما أخذت الهواجس تداهمنا هـذه الليلـة ، وتنتـاب أذهاننـا المكدودة ؛ حاولت أن أطردها وأقول لرفاقى :

– من الخطأ أن تسترسـل مـع الخـواطر المزعجـة .. إننـا لم نقترف إثماً .

* *

* ومع ذلك لم تطمئن نفسى تماماً إذ أن الرياح فى الخارج بـدأت

تصفر بشكل شئ حيث هبط الضباب كثيفاً حتى غطى جدران المعمل، وزجاج النافذة من الخارج .. قلت دونما دهشة :

– لا بأس .. الواقع أن هذا الأمر لم يكن طارئاً بالنسبة لى :

* *

* ومضت دقائق أخرى حتى التقطت أُذناى صوتاً مثل البكاء فى الخارج ، وبالرغم من أن رأسى تحول إلى خلية لأفكار مزعجة إلا أننى أردت أن أبدو هادئاً ومرت لحظات ثقيلة والنحيب يتألق مع صوت الريح إلى أن انطلقت صرخة مستغيثة !

فتحت الباب وإذا بشامية البدوية يغمرها الضباب والليل الجديد. أبديت مساعدتها للوقوف ؛ فأبت مُنفجرة مثل الصاعقة :

– بودى ألا تُضيع الوقت سُدى .. ألا تُدرك مضمون الصرخة ؟!

* ولما هدأت ثايرتها ، عادت إلى هذيانها الجميل :

– " يوسف : قلت : أبعث لك رسالة يا حبيبة . "

* *

– استندتْ إلى الجدار ، ثم سارت متهالكة تسبقنى إلى المعمل ، وعند شعلة النار الموقدة ، وقفت تستأنف هذيانها العميق .

– ما الذى تستطيع أن تفعله يا يوسف .. أنت مازلت فتى ؟ !

– أفعل شيئاً ما يا شامية .

– ما هذا الشئ يا يوسف ؟ ! .. تكون تحت سيطرتهم فى كل الحالات يا يوسف .. لم يسكتوا عنك يا يوسف !! "

هكذا قالت شامية تسأل وتجيب فى عدم انفعال ثم صمتت يسمو فى باطنها القلق ، والتمرد ، والغضب ثم تسربت إلى عالم

الحقيقة هامسة :

– .. لم أكن أتوقع أن الخطر يتم بمثل هذه السرعة .. قلت لــك يا يوسف .. يوسف "

ثم صرخت صرخة جعلت أرض المعمــل تميــد تحــت أقــدامنا كأنها تقول :

– ثمة خطر يفجؤكم .. ينبغى أن تستعدوا له .

تطلعنا إليها فى استفهام وإكبار .

وهى تتمتم : –" شئ ما .. شئ ما !! "

ومن بين وجومنا سألتها :

ما هذا الشئ يا شامية ؟ !

سادها صمت ، واكتفت بنظراتها الحكيمة المخذرة ! وما لبثت أن تغيرت سحنتها كما لو عاودتها ذكرى أليمة وصراعات ودماء !

خطر لى أن أسالها عما يدعوها إلى ثورتها الصامتة لعلها تزحزح لى النقاب ؛ فتنكشف خبايا النفس .

– ماذا فى الأمر يا شامية ؟ ! .. أنت عميقة .. قلبــك النظيــف يشعر بمودتنا واحترامنا لك .. صمتك يشجينى .. لم نعد نحتمــل .. نحن فى دوامة .. هل نفتش عن مواجهات جديدة ؟

* *

* اتسعت عيناها الرماديتان ، وقربت يدها إلى الشعلة، وهتفــت بتبرم وضيق ؛ فاعتذرتُ لها بنظرة وُد .

سادها سمت مرة أخرى ، بينما همس صوت داخلــى يُعــنفنى .. قلت: :

– " ربما أمرٌ هام فاتنى تدبره ! "

*　　*

* تنهدتْ بصوت مسموع ، وظلت ترمقنا بعينيها الغائمتين ونرمقها بمودة ، ثم تمتمت برجاء وعتاب ، وفكت من جديلتها لفافة ورق ، وقالت :

– خذ .. ورق يوسف .

هذا ما حدث ، ثم مرقت من بيننا مثل السهم تجرى فى الخلاء الوسيع .

*　　*

* تركتنا شامية بعد أن غرست فينا تأثيراً حاداً مؤسفاً .. أفهمتنا قواعد الأخلاق ، وإدراك الحق والباطل ، ومن ثم عكفنا على ترتيب وتبويب هذه الأوراق حتى تجسد يوسف أمامنا فى المعمل قوياً .. موفور الشباب .. صادق العزيمة ، يستطيع أن يقف معنا لننطلق عبر الحدود .

كيف تسنى لنا إهمال هذه الرأس ؟ !

*　*　*

* .. مرة أخرى هزنى القلق ، فهمست لنفسى بأننى متعب ومضطرب ، ثم خطرت لى عبارة :

– " لم يعد أمامنا وقت طويل "

رُحت أرددها حتى أتى الثلث الأخير من الليل ، وهلتْ معه دقات الشيخ الطريقى .. قلت :

– " من الحكمة أن أطلعه على ما توصنا إليه "

سيدى الشيخ :

– أود إطلاعك على النهج الذى نسير عليه فى أيامنـــا القريبـــة المقبلة .. وضعنا هذا المنهج بعد رحلة عمل طويلة ، وإنتاج جديد .

قال الشيخ :

– ما هذا الذى تقوله ؟ ! .. إنه جميل .

قلت :

– فكرنا فى المشى على الأقدام خلال البرارى وآفـــاق الـــوادى البعيد حتى نصل إلى القطار .. وهناك نوزع أنفسنا علـــى الأبـــواب المنغلقة نطرقها بابتكاراتنا هل يكون تصرفنا مأمون العاقبة يا سيدى؟؟

رد الطريقى هامساً :

– لا أطيق أن أراك متألماً يا فضل .. أصغى إليك وكأنى أصغى إلى صوت مطر قادم يُنعش الأرض .

أجل .. .. محطة القطار تكون مداخلتكم بدلاً من الجسر .. لكن يجب ألا تتحدثوا كثيراً حتى تنتهوا ؛ لأنكم لا تعرفون كيف ستتبلور الرحلة .

– تماماً يا سيدى .. نعمل فى صمت حتى نشاهد تجليـــاً خاصـــاً بنا – لكن – يا سيدى : أترى أن هذه الرحلـــة تكـــون محمـــودة العواقب ؟

تنهد الشيخ قائلاً :

– هناك أمور لابد وأن يتركها الإنسان للقدر .. للقدر دور هام فى الحوادث الخطيرة .. وهناك أمـــور أخـــرى لا يغفلـــها القلـــب واليقين ، أشياء مصحوبة بالعرق والجهد وعواقبها مأمولة – فقط –

ينبغى تقديم السبب .. الوسيلة الوحيدة لتحقيق النتائج ، والتخلص من الخونة المتربصين .

هكذا حاورنى الشيخ ، وهو يتابع ابتكاراتنا التى أعددناها للسفر ثم أردف قائلاً :

– فكرة العبور كانت محفوفة بالمخاطر بسبب يأس بعض الأفراد والآن يهتف صوت داخلى :

" عليكم أيها الفتيان خوض الأمر بجد لا تثنيكم فكرة الموت . "

* * *

* انطوى المعمل هذه الليلة على وعد بجو رقيق لطيف ، وكان ذلك فى مطلع الربيع ، فلمعت أعيننا نربط الأمتعة ، ومن لحظة لأخرى تنساب نظرات الشيخ الطريقى بأحاسيس لا تنتهى ، يبتسم فترتعش شفتاه العجوزتان يقرأ إصرارنا وتجمعنا فى روح واحدة .. رأسه يقترب من رءوسنا فتدهشنا حرارة أنفاسه ودوران مقلتيه ، وكان القمر فى الخارج لازال يضئ يميل بوجهه الناصع على زجاج النافذة .

وفى لحظة دخلت شامية ، ووقفت فى الوسط .. لم تبدو هذه المرة نحيلة ضائعة ، ولم يتملكها خوف ولا فزع بل انحنت فى جرأة تساعدنا فى ربط الأمتعة – هى تعى ما حدث .

واستكان الطريقى ملتصقاً بنا .. دموعه تنهمر فى تجاويف أكتافنا.

سألته : – ما بك يا سيدى ؟ !

قال :

– الله المساعد .. صوت نجاح المسعى يأتينى من بعيد .. شعلة

المعمل الصغيرة تبقى متوهجة فوق الطاولة .. أراكم تصعدون درجات السلم .. أيقظنى هذا الإحساس بأن أشياء سوف تحدث ، وتشتعل شموسكم ؛ تحجب ضوء اللمبات المزيفة .

قلت :

– تشدنى عيناك الدامعتان يا سيدى .

قال :

– اصعدوا قوائم الطريق المحفوفة بالمخاطر .. خطواتكم تزداد ثقلاً .. اضغطوا على جمرات البرارى بأقدامكم .

هكذا قال الشيخ ليلة الخروج ثم هبت نسمة فجر مُنعشة ، بينما التصقت شامية بداخلنا ؛ تتبعنا بلمعة دمع وشعر غزير مبعثر على وجه عربى .

مدتْ يدها وفتحت الباب ، وظلت يدها ممدودة حتى خروج آخر رفيق ، وانحنى نعمان على الحقائب وانهال عليها تقبيلاً .

التفت إلى شامية ؛ وجدتها تنسحب إلى الداخل ترص أدوات المعمل ، ثم وضعت يدها على رأسها ، واليد الأخرى بالقرب من الشعلة .

والشيخ الطريقى ينقل خطوة ثم يُحرك أخرى ؛ يتبعنا حتى غبنا عند المنعطف الذى يؤهلنا إلى أول الطريق .

* بعيداً عن الجسر المقوس ، بدأ فضل محمود الرحلة بأصدقائه عبر الدورة الخلفية الموسومة بالنتوءات ، والمرتفعات ، والأفنية القديمة الممتلئة بتماثيل حيوانات حجرية ، وعُشب شيطانى مخيف وقطاعى الطرق .

* من فوق رابية عاليه .. ابتسم فضل محمود للرفاق يشـــاطرهم حماسة الخطو .

ساروا على أكتافهم الأمتعة ، والأبحاث ، والابتكارات ، تطلعوا إلى السماء ثمة نور قادم من أعمق أعماق المدى .

* *

* وبعد مسافة قصيرة عند فوهة غريبة على حافة المدق ، تبـــادل الرفاق نظرات الاستغراب ؛ ثم ثبتوا أبصارهم على رأس ثعبان ضخم يبرز من فتحة الفُوهة .. يلتوى برأسه كما لو يرقبهم بوعيد!

أثارت حركة الثعبـــان الفـــزع الحقيقـــى فى ضـــربات قلـــوب الرفاق ، فطاف فضل محمود بينهم مستفهماً :

– ما معنى ذلك ؟؟

وهمس قاسم :

– ماذا يريد منا هذا الثعبان ؟ !

أما صابر حمدى التصق بفواز عبد الرحمن كأنه يطلب الأمان !

وعاد فضل يستفهم فى استغراب :

– هل يكون ... ؟ !

وتلعثم صابر حمدى :

– أيمكن أن يكون .... ؟ !

أحس فضل بشئ من الخجل فبادر الرفاق :

– إننى أعرف ذلك من قبل .. هذا .. نحن مازلنا فى أول الطريق.. ربما لا يكون ثمة شئ على الإطلاق .. مجرد عرض قبيح بـــدا لنـــا فى الطريق .

التقط فضل حجراً صغيراً مدبباً وظل يناوش الثعبان وفعل مثلـه الرفاق حتى تسلل الثعبان متخفياً داخل جسد الفوهـة ، وبسـرعة زحزحوا حجراً ثقيلاً وأغلقوا فتحتها تماماً وهالوا عليها الرمال .

تنفسوا بهدوء ثم قال فضل :

– من الضرورى فى هذه الأيام أن يرد المرء على الإثم بالإثم !

أجابه الرفاق :

– حسنٌ .. لم نقترف إثماً .

* خشى فضل أن يمتد الحديث بينهم بعد هذا الحادث فقال :

– مجرد حادثة طارئة .. هيا نستأنف السير عبر هذا الوادى الضيق حتى نصل إلى نهايته .

قال صابر حمدى حانقاً :

– لا أظن أن الحالة العامة لهذا الوادى تسمح لنا بالسير فيه.

قاطعه قاسم عبد المغيث مستنكراً :

– لماذا ؟ !

– إنه ملئ بالحيوانات القارضة المرئيـة والمخبـوءة ، والزاحفـة وغيرها .

استدار إليه فضل وخاطبه بشدة :

– أنت دائماً كثير الهواجس ، تنتابك الوساوس كلما رأيت نافذة جديدة فى حلقة حياتنا التى نعيشها .

أثناء ذلك :

لاذ فواز عبد الرحمن بصمت عميق ، وراحت الأحـداث تتـابع وتدور فى ذهنه حول نقطة واحدة وهى :

كيفية تفادى الجماعة من حادثة فُرقة خطيرة توشك أن تقع بينهم؛ فتهد كيانهم .

فقال بلهجة حذرة ومحسوبة لعلها ترضى الجميع :

– قد يكون صابر مصيباً فى رأيه إلى حد كبير .. لكن لا يجب أن يكون الخوف حائط صد يمنعنا من السير .

اقترب فضل منه وسأله :

والآن ماذا نفعل يا فواز ؟

– نفكر جيداً لتجنب ما نخشاه .. ولنعلم أن ليس هناك طريـــق آخر غير هذا الممشى الضيق الذى اختلفنا حوله .

عاد صابر ينظر إلى المدق مرة بوجه مرتجف وإلى الرِّفـــاق مـــرة أخرى قائلاً :

– ألمح خلف الأحجار جماجماً وعظاماً ، وثمة نعال لإناسٍ مروا من هنا !!

هزه فضل من كتفيه قائلاً :

– لا توجد هناك أية مخاوف ... لا تترك مثل هذه الأمور تحوم فى رأسك المكدود .

غمغم صابر :

– ما الحل ؟ !

أجابه فضل بثقة :

– الحل هو تماسكنا على شكل مقدمة ووسط ومؤخرة .

صرخ صابر :

– أهى حرب ؟ !

– بالفعل حرب حقيقية .

أحس صابر أن رأسه فاضت بوهج ساخن لا نهائى عندما شده قاسم عبد المغيث من ساعده ؛ فتنفس بحماس وانطلق مع الجماعة على هامش الوادى ، وابتسم أكثر وهو يرى الكائنات الزاحفة تهرب خلف الأحجار .

وبدأ تراب الطريق يخفق تحت أقدامهم من جديد .

هتف فضل :

– لا بأس كنا نعلم أن أقدامنا تشق طريقاً قاسية !

* * *

* فى ذلك اليوم .. رفع الطريقى عينيه إلى الشمس صباحاً ، وأطرق مفكراً مزداناً هذه المرة بأنوار جديدة استلهمها ، فانشرحت أساريره ، وهو يُلملم الكتب التى انتهى من تغليفها على ضوء النجوم ، وقال :

– " أجل .. لم أغض الطرف لحظة عن أهل الطلب من أبناء القرى والنجوع لكى لا يكتفوا بالحاضر الذى هم فيه "

بل يجب معالجة الوقت بالصبر على تحصيل الماضى ، والسعى الدءوب املاً فى تحسين ومكاشفة الآتى .

وهنا بالذات تكمن المعضلة التى لا حل لها إلا بتجهيز فرقة بعد فرقة حتى لا تُقتل مواهبهم ، ويفقدون القدرة على معرفة الخبايا والدوائر .

المسلك الصريح للمسار : تنقلاتى بين دروب النجوع والقرى كيما ألتقى بهم وأنظر إليهم أكثر مما نظرت من قبل .. "

هكذا حدث الطريقى نفسه ، وهو يلقى نظرة مُستوحاة من القهم والتفكير فى المصير ، ثم هبَّ لا يفتر عن حركة وسعى .

* * *

* فى غروب هذا اليوم حدق نعمان مشدوهاً ، ثم اندفع راكضاً باتجاه الشاطئ ثم ربض مُتخفياً خلف تلة مرتفعة ؛ يرقب وجهاً غريباً يتمايل مُتلفتاً !! . وبعد فترة ثار نعمان فى مخبأه لرؤيته فتاة قادمة من النجع تمشى على وجل مُتبرمة خلفها ، اشتد قلق نعمان وارتفعت حميته عندما وجد البنت قد تركت يدها فى يد الغريب !!

زفر نعمان ، وقال : – " لن أنتظر أكثر من ذلك !! كان واقفاً فى انتظارها !! انطلق راكضاً ، ولما صار على بُعد خطوات منهما قَفز ووكز الغريب فأوقعه ثم طوق عنق البنت بذراعه ، وحجزها وصرخ فيها :

– تعودين إلى النجع .. دارك .. إبقى فيها ما عشت .

هكذا صرخ فيها ثم دفعها من ظهرها .. إن عُدت سوف أذبحك غير نادم .

* * *

* فى نهار اليوم التالى :

صَّب فضل محمود خلاصة عصبه فى ساقه العرجاء ، وجرجرها فوق الرمل ، ومضى برفاقه شطراً من مدق الجبل ، والشمس ترمى بحمم فوق رءوسهم .

اجتازوا بقاعاً صلبة من صخور مدببة مثل سنان الحراب ، ثم صعدوا كثباناً واضئة ذات سطوح رملية حمراء .

* دار صابر حمدى على عقبية ونفخ :

– هذا الطريق يصعب تصنيفه بأكثر مما كنا نعتقد .. بل هو أسوأ من ذلك .. شئ خارج عن تقديراتنا الخاصة .

شعر الرفاق بقدر من الأسى ، فنظر إليه فضل بإلحاح ثم انفجر:

–لا تكن مضطرب الأنفاس هكذا .. بماذا كنت تعتقد يا صابر ؟!

– أعتقد أن الدنيا كلها صحراء ليست ذات جدوى :

– بوسعك أن تحرك ساقيك .. أيرضيك أن تمضى عمرك منعــزلاً حتى تموت :

– أراك يا فضل مُفعماً بنشوة نصر لم يتحقق بعد .. أووف .. هذه الصحراء مليئة بحيوانات مختلفة الأشكال والأحجام !

– إننا مهيأون لكل أنواع الحوادث التى تواجهنا .. نحن مازلنــا فتيان .. وبوسعنا أن نتحمل .

– عقب قاسم عبد المغيث :

– هيا .. بودى ألا نتباطأ ..

وصاح فواز عبد الرحمن :

– ننظر إلى الخطوط الجميلة فى الأفق .

أجابه فضل :

– أجل .. الطريق قصة طويلة ، وعرفنا من أين نبدأ ..

حاذر أن تأكلك الوساوس يا صابر .

بينما هتف قاسم مرة أخرى وهو يتوسط رفاقه :

– لنا فكرة محددة .. فكرة حاسمة ونهائية .. هيا .

* * *

* فتح الطريقى عينيه بعد غفوة زاخرة بتجرد وبهاء ، وقال :

– أتلمس دروب وأزقة النجوع .. أصيح بالحق ، ولو تعرضت للائمة أو أدركتنى سيوفهم .

اعتزل خلوته كدأبه كل صباح ، ومضى إلى النجوع ، يستمنى أن يُوفق فى نيل هذا المبتغى ، وعلى باب النجع حث الخطو إذ رأى غلاماً يخبط الأرض ، ويتبعه مهرولاً ؛ فاسترق النظر إليه ثم إلى جموع من الغلمان والبنات على بوابات النجع يطاردون الجراد .

شق طريقه بين الحشود ، ثم توقف فجأة متهادياً إذ وضع يديه على صدره ، ورفعهما بالدعاء ؛ لقد لاحقته ذكرى جماعة فضل محمود ، وقبل أن ينتهى من مقام التوسل والدعاء مال به الخاطر إلى خلوته وجُب المخطوطات ؛ فنادى راجياً :

– يا أهل النجوع :

ما أتوق إليه وأبغيه أن يختمر الفكر ويتلاءم المفهوم .. يا أهل الطلب :

اللحاق اللحاق بالخلوة حتى لا تتأخر بكم الأيام ، وتقعون فريسة للثعالب والذئاب .

يا أهل النجوع : الويل لمن تكاسل من العلماء أو تملص .

* * *

* بعد مسافة ليلة كاملة .. هناك فى منحنى ضيق ينتهى طرفه بإحدى السلاسل الجبلية الملتوية ؛ أصابتهم لحظة فزع وهبة حقيقية .. فغمغم صابر حمدى :

– أستشعر المصير الذى توشك أقدامنا أن تؤول إليه تجلد فضل

مُشجعاً :

– هذا أمر ضرورى .. مواقف .. كثيراً ما عشناها وتمثلناها خلال رغباتنا وتوقعاتنا فى مواجهة ما نتابعه من أحداث مماثلة لهذا الموقف – فقط – هو مجرد مأوى للحشرات الضارة والأفاعى والعقارب .

تحت وطأة الرعب واصل صابر حمدى :

– إنها مغارة مرعبة .. تضرب مانعاً كثيفاً بيننا وبين المرور .

ثار قاسم عبد المغيث :

– إنه أمر يبدو طبيعياً للغاية ، ولا ينبغى أن نبقى فى هذه العزلة

لوح صابر فى وجهه :

– بل فى وحشية رهيبة :

ولما أدرك فواز عبد الرحمن مرماهم .. قال متبسطاً :

– إنه ليس الطوفان يا أصدقائى :

وعقب فضل :

– أجل .. إنها ليست تلك الليلة العجيبة :

استفهم صابر فى تنكر :

– ما الحل ؟ !

بدا عل فضل قليل من الاضطراب وهو يرمق صابر حمدى ، ثم انسحب إلى فكر عميق ثم قال :

– ثمة مدق خلف الجبل على بُعد ليلة كاملة من تسلق هذا الجبل.

سرح قاسم عبد المغيث فى الفضاء الوسيع كما لو يعد نفسه لبطولة خارقة ، وحضور ذهنى فى أوقات الخطر ، وخلال هذه

اللحظات ألقى فضل عليه نظرات ثم سأله :

- أراك قاطعاً أو صارماً على نحو ما - أليس كذلك .. ؟

أجابه فى تلهف :

- إننى أعانى نوعاً من الحنين للوصول إلى هذا المدق .

- حسنٌ .. ليس ثمة خطأ بيننا فى الفكر .

قال صابر حمدى مُحتَداً :

- ليس معنا من الأطعمة والماء ما يكفينا .

مازحه فواز عبد الرحمن :

- معنا ما يكفينا بالكاد .

قال صابر :

- فكرة تسلق الجبل .. فكرة محفوفة بالمخاطر !

قاطعه فضل بحدة :

لا تكن محبطاً !

وصرخ قاسم :

- اسمع .. ماذا تظن بنا .

همس صابر على استحياء :

- كل خير على نحو تام .

- إذن نحن على الحلو والمر سواء .

كان وقع هذه الجملة فظيعاً على نفس صابر حمدى ؛ فشعر بإحساس مُروع وجُرح فى الشعور .

لاحظ فضل ذلك فهمس لنفسه :

- " متطور رفيقى الذى ينظر به يتم على نحو سئ .. يفتقر إلى

المهارة والتحمل الكامل ، لو أتيح لى إنقاذ ذلك ، تكن العملية قد تمت بصورة أكثر جمالاً . "

هكذا قال فضل وهو يتسلق الجبل برفاقه .. ظهورهم مقوسة وأياديهم متشابكة .. يخاطب رفيقه :

– أحذر التراجع يا صابر .. إننا نحبك حُباً كافياً .. امض معنا مناضلاً .. أراك من النوع الذى يجيد تحليل الأمور لا تخش هذا التوتر .. إنه جميل ، ولعل السبب فيه ؛ هو التشوق المفرط إلى الأهداف التى نسعى إليها واستشعار المصير الذى نؤول إليه .. لا تثنيك خربشات الصخور .. جروح الأيادى وتشققها هى التى يجب أن نحبها – تماماً – هى الدليل على وجود قيمة ما ؛ نعانى من أجلها .. هيا اصعد معنا بفكرك الجميل .. فها نحن اقتربنا من الذروة التى تشبه ظهر الجمل .. بمجرد وصولنا إليها نجلس للغداء ، ونُضمد الخربشات ، وعندها نحكى فاصلاً من قصص حياتنا .

هكذا قال فضل وهو يتملى عرق الوجوه السمراء التى تُضىء ببريق ملتهب .

واتخذ خطوة قبل الاقتراب من الربوة ، وأمسك برفاقه وانخرطوا فى ضحك ، وراحوا يتحدثون فرحين مثل أطفال يتمتعون بلذة وقت طيب ، ثم شرع قائلاً :

– نتناول غداءنا فوق ذروة هذا الجبل ، ثم تدرس جغرافية هذا المكان فى عصر هذا اليوم .

* * *

* هناك على الشاطئ بالقرب من الجسر بدتْ شامية البدوية كمن

تحاول أن تخفى شيئاً ؛ حيثُ تجاهلتْ لطمات المياه فى ساق شـجرة الصفصاف ، واستبدت بها رغبة فى عمل شئ غير واضح ؛ فتصلبتْ ملامح الطريقى ، ونقل العصا من يده إلى اليد الأخـرى ، وانغمس يتابعها مشدوداً ، وهى تستدير إلى النباتات البرية المصـطفة على الشاطئ تهمس فى شجن :

– يبدو وأن هناك بعض المتاعب !! "

هكذا ظلتْ تردد حتى تألق شجنها ، ولكنها طفت بين النباتـات تحاورها بمفردها لا تفتقر إلى عون !

بينما الطريقى يواصل مشاهداته من بعيد إلى أن أومأ برأسه كمـا لو أيقن خبيئة نفسها ، فغمغم لنفسه :

– " لقد نوهتْ شامية بمواقف لا يجب أن تُنسى .. أسهمت ردود أفعالها فى تعلم التوافق والتوازن .. لابد أن الجماعة تغلبت على تعثر الرحلة "

هكذا همس الطريقى ، وهو لم يزل يرصد الحركات والسكنات .

وفجأة انتابت شامية نوبة فرمقها بحذر ثم بعـد خطـوة قصـيرة قال : – ماذا تعنين يا شامية ؟ !

أحس الطريقى فى هذه اللحظة بطلقات تُدوى فى رأسه ؛ فهمهـم فى أسى :

– " قلبى لا يخوننى "

وجعل يرددها بحدة ثم خلا الشاطئ وأفسح لها مجالات الكشـف والبوح ؛ فراحت تترنم وهى تنحنى تحت النباتـات البريـة ، تجمـع الزهور الميتة فى طرف فستانها البالى ، ثم توقفت فى تأمل تحية لعبـور

نسمة أمام أنفها الجميل .

* * *

* من فوق سماء الجبل بسط فضل محمود خريطة تمثل جغرافية هذه المنطقة الجبلية ، ثم راح يشير بإصبعه ، وهو يخاطب رفاقه :

– هنا بداية المدق المنحوت فى صدر الجبل .. نراه ممهداً للسير .. يبدأ من هناك .. الليلة نترك هذه المنطقة ، ونجتاز الطريق من بدايته إلى نهايته ، وهناك فى البعيد بالقرب من الكتلة السكنية العشوائية محطة قطار .. وهنا مُنحدر مخيف ، يجب أن نخوضه بمهارة لكى نتخطى حدود هذه الصحراء .

– وهذه سماء الجبل ، وهناك منطقة غير صحية تحوى الغريب المروع ، والحقير الذليل ضئيل الشأن ، والرث القذر ، ومنهم المعربد المرتشى ، وسماسرة الحروب !! .

* *

* حل صمت مذهل كئيب على الرفاق بمجرد سماعهم للفروق الحادة التى وضحت فى توصيف الخريطة !

ولما لاحظ فضل أثر ذلك على نفوسهم قال :

– ليس ثمة حل وسط .

ثم استطرد ، وهو يشير إلى نقطة فى الخريطة المتعرجة :

– وهنا منطقة الخبايا .. لو لم نكتشف أسرارها ؛ لتعذر علينا السير .

هكذا قال : وظل يجاهد حتى يبدو أمام رفاقه رابط الجأش كأنه لا يبالى بهذه المخاطر ، ثم نهض من مكانه ليتمشى فوق ظهر

الجبل ؛ عثرت قدماه فى حجر ناتئ ؛ فكاد يسقط لولا أن تحامل على يده قائلاً :

– لا بأس .. نحن نسير فى طريق واحدة ، يجب أن نتأهب ، ونتوقع الخطر حتى لا نفشل فى إصابة الهدف .

هتف الرفاق :

– الله المساعد .. هيا : ننتزع الحقيقة انتزاعاً .

* *

* تشابكوا فى ثقة بالغة ، واستطاع فضل أن يحل المشاكل التى أثارها الطريق ، وطمأنهم بأنهم سوف يجدون لكل عقبة سبيلاً لاجتيازها فى أمان ، وبذلك أضحى لهم المدق واضحاً مُشرقاً ، وانسابوا فيه دون توقف .

* *

* .. أثناء سيرهم شعروا بأن قلوبهم ترقص ، فراحوا يترنمون بأناشيد الحب ، والتخلص من قيود المحسوبية والاستزاف : ووقفوا فوق رابية فى منتصف الطريق ؛ يتطلعون حولهم بهامات مرفوعة – بينما – بدا فضل صامتاً يمعن التفكير بصورة دائمة

فى الآتى ، وآلاف الأفكار الأخرى تطوف بعقله خلال اللحظة الواحدة ؛ يتلفت حواليه ؛ يقرأ معالم الأشياء الصحراوية ، يرى أنها :

لا تبدو ثابتة فى أماكنها ، تبدو أمام عينيه ضخمة ثم تتحول إلى تلالات سحرية عجيبة ؛ تحجب الحقائق !!

وقف فضل ينتظر مرور هذا المشهد ، وهو يشعر برغبة شديدة تدفعه إلا اكتشاف الحقائق .

تطلع الرفاق إليه ؛ فوجدوه متحفزاً لحديث ؛ ولكنه خشى أن يتحدث فى أمر لا يودون سماعه الآن .

فودَّ أن يوجه تيار الحديث وجهة أخرى ؛ فسأل رفيقه صابر حمدى عن حالته ؛ فحدجه صابر بنظرة استطلاع ثم أجاب :

– هناك أشياء تقفز فى ذهنى أفزعتنى ، ولم تكن لتثير أحدكم .

اقترب فضل منه ، وشبك ذراعه فى ذراعه ، وقال :

– ماذا فى الأمر يا أيها الرفيق ؟ !

– يجب أن نسأل أنفسنا عما تشير إليه الأحداث لحظة بعد لحظة .

ماذا تقصد ؟ !

أن أساساً آخراً من الأسس التى وضعناها يمكن أن يساعدنا فى الوصول المبكر .

– ما هذا الأساس ؟

– أساس دراسة الكشف .. كشف ما يُدبر لنا فى الخفاء لنكون على أهبة الاستعداد والمواجهة والتخطى .

– أجل يا ر تمى : إن دراسة الأساس الذى تطرحه يساعدنا كثيراً على إدراك المغزى ، مع أن حياتهم هناك متقلبة وتافهة إلى حد مفزع .. هذا الأساس ينبغى أن يكون فى الوعى تماماً .

* * *

* أمام الخلوة على مصطبة مفروشة بفروة عنزة ؛ وكان الليل آخذاً فى نشر برده الخفيف . . لازم الطريقى هذا المقام برفع عينيه إلى السماء ويهمهم :

– " أملى فى الله أن يسعفنى على تجهيز فرقة جديدة قائدها لا يقل

بأساً من فضل ، يعمل على تنقية الجو من الأبخرة الرديئة . "

هكذا سبح الطريقى مع نفسه ، وفجأة غالبته نفضة أصابته بريبة وحذر ؛ حيث تلفت على سماعه صوتاً ساخطاً ومتوعداً !!

ولى وجهه صوب السماء ، وهمس فى حزن :

– " فسد الجو حتى صال فيه الغرباء !!

فو الله ما خوفى المريع إلا من القتل غدراً وبطشاً . "

وبعد قليل استرد بشاشته ، وبقى متربعاً يميـــل بجذعـــه قلـــيلاً للأمام ، وقد زُين الجو بعبق التسابيح الزكية .

وفى هذه الليلة :

برغم البرد القارس ، وهبوب الريح وحلكة الليل استطاع أن يرى شامية ، وهى تتنحى ركنـــاً فى الطريـــق ، وتقـــع مرتجفـــة بوجـــه شديد الشحوب !!

هرول فى اتجاهها ، وحدق فيها :

أيقن أن البرد قرصها ؛ فخلع عباءته ، وأحاط بهـــا جســــدها وساعدها على الوقوف ، تشبثت به مثل طفلة خائفة ، على حين كان الصوت المتوعد يرن صداه مع هبوب الريح !!

* * *

* .. أثناء الســـير .. شـــعر الرفـــاق بـــدوى هائـــل يثـــور فى عقولهم ، وخلال هذا الدوى ترامت إلى مسامعهم ضحكات ساخرة مجهولة المصدر ! !

* *

* لم يجزعوا إلا أن ملامحهم بدت عليها سمات الأسى العميق ، وهم

يلتفتون فى كل الأمكنة ! ! بينما الضحكات تتوالى فقال فضل:

– هذه سخافات لفئة غريبة متقلبة خبيثة ! !

وأضاف قاسم :

– على أية حال .. نحن اندمجنا فى عالمنا على نحو يوجـــب علينـــا التمرد ، فلم يبدو لنا خلاف ما كنا نتوقعه .

وقال صابر حمدى :

– هذه الضحكات قد تكون عنصراً حيوياً فى تحديد شكل التنقل والمسير داخل الجبل وخارجه .

وعقب فواز عبد الرحمن :

– هذه الاضطهادات لا يجب أن تُسلمنا إلى حالة من الإحســـاس بعدم الأمان ، والتوجس الغامض .

وأردف فضل قائلاً :

– إنها ضحكات جنون العظمة وحب الاضطهاد المتزايد – علـــى أية حال

إنها قدمت ا رؤية معينة ، وليس من الصعب أن نبرهن على أن هؤلاء الغرباء يناوروننا بمثل هذه الوسائل التى تبدو على نحو ما أكثر أهمية ؛ فذلك يدفعنا دفعاً إلى مواصلة الجهد الذكى .

* *

* يمكن تحديد الموقف من فوق هذا المـــدق .. التنـــامى المتوقـــع لمسيرتنا يتخذ مساره .

هكذا قال فضل لرفاقه ؛ فقال صابر حمدى متوجساً :

– هذه الشخوص الغريبة تحيط بنا من كل مكان .. حركة دوران

عيوهم تقول أهم كشفوا عن الخطة التى انتويناها .. إهم يقفون هناك فوق المدق مثل قطار بضاعة يسد الطريق ! !

صاح قاسم عبد المغيث :

– لنفتح أغلفة الابتكارات ونقاوم .

أجابه صابر حمدى بألم :

– يبدو أهم يناوروننا بذكاء .. أعتقد أن حيلهم لا تنتهى إلى هذه الحد .

تقدم فواز عبد الرحمن نحوهما قائلاً :

– إهم يحاولون هيئتنا لتقبل الوضع الجارى .

صاح فضل فيهم :

لم يكن أمامنا خيار إلا المقاومة أو الموت .. ينبغى أن نكون واعين بتلك الانتحارات الغامضة ؛ فتفيض أنفسنا بالتمرد ونحن نواجه كل شخص غريب يحاول أن يُبدى لنا أنه طبيعياً للغاية .. هيا .. الله المساعد .

* *

* أثناء السير .. انكأ فضل على كتف رفيقه صابر حمدى ، كان ثمة شعور يملأه بالارتياح والسعادة ، ولكن لم يكن ليستطيع أن يفصل نفسه عن كل الحوادث المؤسية آخرها ضحكات الشخوص الغريبة التى ودت إعاقتهم ! !

وكانت جموع مشاعر الرفاق تلتف حوله .

* *

* دار فى ذهن صابر حمدى التفكير فى الحصول على المال اللازم

لمواصلة الطريق الصعبة .. قال :

– إن ما لدينا أوشك على النفاذ !

قاطعه قاسم عبد المغيث :

– نكتفى فقط بالنفقات اللازمة والضرورية ، والاستغناء عن بعض حاجاتنا الشخصية .

* *

فى نهار ذلك اليوم ، اتسعت عينا فضل محمود ثم أرخى جفونه كمن يحلم ، ثم ضحك ، وقال فى سعادة شاملة :

ابتسم الرفاق بينما انفرد صابر حمدى بنفسه وغمغم :

–"شمس هذا النهار تشع سخونة شديدة حتى إننى أحس بالدوار!!"

قال ذلك ثم وقف ساكناً ، ثم مشى ، ثم وقف مرة أخرى ، ثم انطلقت منه زفرة :

– " اللعنة على هذا الحر ! ! "

انزعج فضل لهذا الموقف ؛ فخلا إلى نفسه يقول :

– "كلما توثقتْ الروابط النفسية التى تربط ما بيننا وبين الهدف .

كان هذا حرياً يدفعنا إلى موالاة التفكير فيما سوف يحدث لنا عبر هذه الرحلة ، ومع اطراد اهتمامنا بالمسير ؛ نحاول التنبوء بما سوف تتطور إليه الأحداث حتى يصل بنا الأمر إلى تمثل الدفاعات والتخطى فوق رقبة الحادثة .

وأحياناً لا تلزمنا محاولة التنبوء بوقوع أحداث معينة ، لكن الأحرى أن نستبين المدى العظيم الذى تقودنا إليه رسالتنا النبيلة . "

هكذا قال فضل مؤثراً على رفاقه ، والشمس ترتفع فى السماء إلى أعلى وأعلى ، ومضت بهم ساعة وهم بالقرب من الهضبة .

لا شجر .. أرض صحراء .. رملية .. الشمس تشع ناراً فوقها ..

توقف صابر حمدى عن السير ، وركن فى ظل الهضبة كما لو تقطعت فى صدره أحلاماً كباراً !

اقترب منه قاسم ، وقال فى حدة :

– لو أنك أبديت رغبتك فى البقاء هناك ؛ لكان الأمر شيئاً آخراً! .. كان عليك أن تقول .. لم أستطع .. كلمة واحدة منك هناك كانت كافية للتخلص من هذا السأم الذى يُحاصرك .. أرجوك انهض أيها الرفيق .. الظل الجميل يتبعنا .. نحن على حق .

* *

* دنا فضل من صابر ومدَّ يده وجذبه إليه :

– سأخبرك الأمر بكل صراحة .. نحن فى حاجة ماسة إلى عقلك العظيم .. ينبغى أن تثق فى ذلك .

لندع أنفسنا ندرس طبيعة هذا المكان .. مَنْ منكم يتقدم للاستطلاع ؟

تقدم فواز عبد الرحمن ، ودار حول الهضبة ، وواصل الكشف بشكل ملائم حتى ابتسم ساخراً وهو يلحق برفاقه من جديد قائلاً :

– يجب ألا يُسرق المرء .. هذه الهضبة مليئة باللصوص الوُجهاء! !

قال الرفاق بوقت واحد :

– هذا شأنهم .. ولكن لم نشعر بخيبة أمل ولو صغيرة ؛ لأننا لم نفاجأ بهذا العبث .. الأمر شائع ومعروف .

وموقفنا شئ عظيم .. بكل تأكيد أمر عظيم .

* .. فى تباشير الصبح أكدتْ شامية للطريقى ما توقعه حيث بكت وضحكت ، وأشارت على مدى البصر مُفصحةً بضوء وألوان زاهية قادمة من النجع .

وهب الطريقى حواسه إلى الطريــق ، وقــد أضــاءه الانبــهار والإعجاب لحظة أن دقق النظر فى الفتى أحمد عبــد الرشــيد الــذى استرعى انتباهه بالأمس فى النجع .

رآه الآن يتقدم جمعاً من الفتيــان والفتيــات ، علــى أكتــافهم الى الكتب .

ابتسم الطريقى ، وأشار بالسبابة :

" هذا فتى يستحق المجالسة والرعاية ، وجماعته المنبعثة قُدامى محبتى ومنتهى أملى ؛ فاللهم اجعل العاقبة لُطفاً . "

قام الطريقى للتو ؛ فتوضأ للصلاة وهرولتْ شامية فاردة ذراعيها تفرد حبل الطريق على غاربه ، بنما أفسح نعمان الطريق للجماعــة وهو يهلل هذه المرة .

* * *

* – " انتهى بنا الأمر إلى أن لا نخاف "

هذا ما قاله قاسم عبد المغيث وهو يصعد الهضبة فى المقدمة يتقدم الرفاق والحصى يتطاير تحتهم وبعد مسافة قصيرة توقف فجأة يجفــف عرقه ، ثم استدار إلى رفاقه يحثهم باتخاذ الحذر مُهمهماً :

– أرى فى ظهر الهضبة حيواناً ثقيلاً فى لون النحــاس .. يرفــع أذنيه ، ويهز رأسه !

لحقه صوت فضل قائلاً :

– لا تفزع .. إنه لن يستطيع أن يمارس عمله السخيف حتى لـو أقام حرباً – المهم – احرص على رباط حقيبتك فوق ظهرك .

صاح صابر حمدى صيحات مكتومة كما لو أحس إحساساً مُروعاً ، وغاص بين رفاقه يهمس فى توجس :

ــ سمع همسات متوعدة خلف أذنى ، وثمة أشياء غريبة تـدب فى الرمل تحت قدمىّ ! !

بدا فضل غاضباً لحد المقت ثم قال :

– أحسُ بجرح فى الشعور ! ! لا يجب أن نبقى هنا أكثـر مـن اللازم .. اصعدوا حتى الخلاص .. لا ينبغى أن نتوانى لحظة حـتى لا يحقق الظلم أهدافه السوداء .. لا سبيل إلا الصعود .

* *

* صعدوا الهضبة بنظرة فى عيونهم جميلة ، وغاضبة بدرجة كبيرة ، وفيهـا تمـرد مثـل الجنـون الجميـل ، ثم قـالوا فى حماسـة إلى حد كبير :

– نريد استقامة صارمة .. لأننا بدأنا حياة نظيفة محترمة .

* *

* ساروا فوق الهضبة بخطوات جميلة ومهمة ، بينما كان الحيـوان الغريب يبتدى من بين نتوءات صخرية ، ويغمغم بفم ضئيل ! !

قال صابر حمدى :

– إنه لم يتوقف عن الدوران .. طويلاً تلك المرة .. مازال لديـه أنواع من التوحش السخيف ! !

قاطعه فضل :

– أرجوك .. الحذر من أن نرى الأمور معكوسة .. الرحلة أصبحت غالية جداً .. والأمر لن يخصنى وحدى .. الأمر يتعلق بإقرار الحق .

اضطرابك يا رفيقى يثير فينا كوامن غامضة ، ويُوقعنا على شئ من الحيرة .. حُلمنا الكبير ليس تماماً مثلما تكون نائماً ، وتحلم بشئ جميل ، ثم تصحو من نومك ؛ فتجد هذا الشئ الجميل .

* *

* برغم ظلام هذه الليلة استطاع الرفاق أن يروا أنفسهم ، لأن عقولهم كانت تلمع حيث خالطتهم سعادة كبيرة عند رؤية كل منهم للآخر ، واقترب صابر حمدى من فضل ولمس كتفيه فى وُد بالغ .

* *

* فى البكور مرحوا مع هواء الصيف ، والمفاجأة ، والخطط ، والوثائق والمخطوطات .

استعرض فضل محمود الحقائب ثم نادى على صابر حمدى ، وقال :

– هذه حقيبتك .. افتحها لنلقى على اختراعك نظرة .. نفحصه بتعميم ، ونتأكد من صمامات الأمان .

وأنت يا فواز : إبداعاتك نسهر عليها الليلة لا نكف طوال الوقت عن الطلب .

ضحك فواز ، وقال :

– الحقائب يا صديقى فى طريقها للكشف .

*غذى الخطو مع الرفاق على الطريق المنبسطة ، وأومـأ إلـيهم مُحيياً ، وعيناه أمامه لا يحيدان ، واستطاع بطرف عينيـه أن يـرى الغريب الشائه يقف فى منحنى ضيق فقال :

– " أمر عجيب .. نظرته تبدو أمراً شائهاً مُجافياً ، وثمة ملامـح كئيبة ! يًحدجنا من موقفه بنظرات شذرة .. صورة مضحكة ومُثيرة ، الأثر الذى يتركه ذلك الغريب أثراً حزيناً قاتماً ، ولكنه – على أية حال – لم يكن مؤثراً أو عائقاً . "

* *

* ارتد شعاع ضوء ذلك النهار إلى وجـوههم ، وقـد عكسـته صدورهم ، وامتد إلى ظهراينهم ، وفى الضوء القوى الذى يرونه من فوق ، رمشوا بعيونهم ، يشاهدون من خلاله القلعة التاريخية ، والمعالم الأخرى حتى بدا كل شئ يُنبئ عن خير وكفايـة ووعـد صدق .

* *

ارتسمت على وجه فضل عظمة من نـوع خـاص .. المعالجـة والتكتيك جعلاه أمراً خلاباً فنظر إليه الرفاق بعين معجبة وفكر عميق .. قال :

– لم تذهب جهودنا سُدى

أجابه قاسم :

– لابد وأن تثور ثائرتنا .

وعقب صابر :

– إننا من أعظم الناس فى تصـاعد المغـامرات .. لـيس لنـا

مثيل فى العالم .

ابتسموا جميعاً ثم علق فواز عبد الرحمن :

– ما كان ينبغى أن نتجدل فى قبو من الظلم .. كفاحنا مُشرفاً ، وأيضاً انحداراتنا مُشرفة ، ولم يُصبنا خوف عقيم .

وقال فضل :

– شعاع الفجر الوليد سيرينا كل شئ .. انظروا معالم الحقائق تبدو أمام نظرى قادمة مُشرعة .

هتف الرفاق :

– معالم الحقائق لن تختفى ثانية .. أجسامنا لم تستحطم من الهزات العنيفة .

* *

* كانت الساعة قد جاوزت الواحدة بعد منتصف الليل تقريباً حينما وقفوا معاً فوق ربوة عالية ؛ يستعرضون هذا العالم الذى امتدّ أمامهم .

وفجأة انبعث جمال الليل ، وهيمن عليهم بجلاله ؛ فبدوا فى صورة غاية فى الجاذبية ، وبدت الساحة أمام أعينهم مثل طيف تقوم خلفه سماء ، وفاضتْ المآذن تبتسم مضيئة برسالتها الخالدة ؛ فوثبوا على الرغم منهم يطالعون حروف ذلك النور .

* *

* .. حلَّ الصباح ممتلئاً بالزهو ، فانبعث من ابتسامتهم وتأملاتهم فيوضاً دافئة بسعادة خالصة .

وراحت الأشياء تبدو مثل شريط سينمانى .. مروا ببيوت حجرية

ضخمة ، وبيوت أثرية ذات كرانيش ، وقمم وأبــراج ، ومــآذن ..
صاح فضل للرفاق :

– ينبغي أن نتذكر دائماً لماذا جئنا هنا ؟

أجابه قاسم :

– المناضلون لا يقف في طريقهم شئ .

قال فضل في تحمس زائد :

– أنت يا قاسم .. معك وثيقة اختراعك .. لا تسأم من الــرفض .. ناقش الجموع – لاحظ – أنهم يمطرونك بأســئلة لا صـــلة لهــا بالاختراع .. لا تسأمهم ، ولا تُسكتهم .. دعهم يرتكبون إثماً !

لا تعطهم فرصة نفي التهمة عن أنفسهم !

هكذا قال فضل ثم أمسك بيد فواز عبد الرحمن واستأنف :

– وأنت .. أود أن تُعرب جيداً عن أسفك في إبداعاتك .. لــن تضيع فرصتك .. أشعر أن قلبي يرقص فرحاً بك .

وأنت يا صابر :

عبر عن اختراعك بمنتهى الدقة واللباقة ، وارقب مصيرك بكـثير من الثبات .. إنك لم تدخل أرضاً غير أرضك ، وليس مـــن مبادئنـــا تسلق الجدران والواجهات مثل الزواحف .. هذه حماقة .. أو كيــف يكون الإنسان خبيثاً مثل أفعى .. مبادئنا لا تتطلب ذلك .

هكذا قال فضل للرفاق ثم صمت ، وأخيراً تركزت في ذهنه أسئلة عديدة ، وهو يفحص ما معه من أوراق .

فاتحه قاسم :

– وأنت يا فضل : سوف يتساءلون عنك في فزع : ما عسى أن

يفعلوه معك ؟ ! هل يتعقبونك ؟ ! هل يزجون بك فى خديعة ظـــلام السجون ؟ !

أجابه فضل بنظرة ودود .

– لا بأس .. فى ظل هذه الدوامة الهائلة من المنقلبين ، والمؤلبين ! المناضل الحر لا يرتعد ولا يجفل ، ولا يهمه مع من يتكلم .

* فى سماء الساحة ، انفتح الأفق أمام أعينهم بكل اتساعه وصفائه وثمة شعور من الارتياح تملكهم بعزة لا مثيل لها .

* *

* كان أول شئ فعله فضل محمود ذلك الصباح هو : كتابة رسالة طويلة للشيخ الطريقى ، يصف فيها صفاء الفـــرح ، وحـــلاوة المرابضة .... ، .... ،،

* *

* وهناك :

عند الجسر أتى النهار يغمر الكون بنوره ، وأشرقت الشـــمس فى وجوه شباب النجوع ، وفتح الطريقى عينيه – كـــان الجـــو رائعـــاً وهادئاً ، وهو يقرأ الرسالة على الفتيان ، وهم يستأنفون أناشـــيدهم المدرسية بانفتاح الجسر، وتطهير المصرف من الأشـــواك الغريبـــة ، ونباتات الحلفاء حتى لا يختبئ فيها حيوان غريب قارض.

وهلل نعمان وهو ينقل العصا من يد إلى يد ، بينما راقبت شامية البدوية الحشد ، وهى تشد خيمتها على الأوتاد حتى صنعت بيتاً جميلاً

من شعور الماعز ، ورشت الماء أمامه ، وتزينت بفســتان زفــاف فى انتظار يوسف الحبيب .

أثناء ذلك :

كانت السماء تبدو زرقاء فيها عصافير خُضر ، وحمامات ؛ يُسمع رفيف أجنحتها فى دورتها الواسعة .

مايو ٢٠٠٣ م



رقم الإيداع بدار الكتب
١٠٤٧٢ / ٢٠٠٧
الترقيم الدولى I.S.B.N
977-374-302-0

دار الإسلام للطباعة والنشر
٠٥٠ / ٢٢٦٦٢٢٠
٠١٢٢٢٦١٤٣٦٢